لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

تاريخ اليهود في بلاد العرب

في الجاهلية وصدر الإسلام

تأليف الدكتور

اسرائيل ولفنسون

(ابو ذؤيب)

استاذ اللغات السامية بدار العلوم

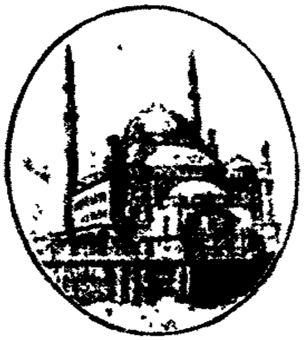

« حقوق الطبع محفوظة »

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر

١٣٤٥ — ١٩٢٧

مقدمة

لحضرة الاستاذ الكبير والنقادة الشهير الدكتور طه حسين

الدكتور اسرائيل ولفنسون عالم شاب يسرنى أن أكون أنا مقدمه الى جمهور المستنيرين من الذين يكلفون بالبحث عن الأدب والتاريخ. أقبل الى مصر وأن له اثقافة متينة منوّعة ، قد اتقن من اللغات الأوروبية الحية أرقاها وأمسها بالبحث العامى التاريخى ولاسيما فيما يتصل بالمسائل الشرقية العربية ، وأتقن من اللغات السامية أغناها بالآثار القيمة فى الدين والأدب والعلم ، ولم تقف ثقافته عند اتقان هذه اللغات بل درس من آدابها حظاً موفوراً فكان له مزاج معتدل من هذا القديم السامى والجديد الأوروبى يعدّه أحسن اعداد لتناول المسائل التاريخية والأدبية الرقيقة اذا تهيأت له مناهج البحث كما الفها علماء أوروبا فى هذا العصر الحديث . وما هى الا أن انتسب الى الجامعة المصرية القديمة واختلف الى أساتذتها يسمع دروسهم ويعمل معهم حتى تهيأ له من ذلك ما كان يحب . ولقد كان يختلف الى دروسى فى التاريخ القديم فكان يعجبنى منه ميل ظاهر الى البحث وحرص شديد على الاجادة والاتقان ونشاط غريب الى القراءة والاطلاع . وكنت أرى فيه عناية خاصة بكل ما يتصل باليهود فى عصور السيطرة اليونانية والرومانية على العالم القديم . فرأيت أن أوجه بحثه هذه الوجهة وأشجعه على المضى فيها .

ولست أنسى محاضرات تمرينية القاها فى مثل هذه الموضوعات تركت فى نفسى أحسن ما تترك أعمال التاميذ المجدّ فى نفس استاذه من الأثر .

ثم ظفر بشهادة الليسانس فى الآداب من الجامعة القديمة وأخذ يستعدّ لشهادة الدكتوراه فلم يرقه من المباحث التى كانت تثار فى الجامعة على كثرتها الا هذا المبحث الذى يتصل دائما باليهود وهو تاريخ اليهود فى بلاد العرب قبل الاسلام وأبان ظهوره

والموضوع فى نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جدا فى التاريخ الأدبى والسياسى والدينى للأمة العربية . فليس من شك فى أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا فى الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز . وليس من شك فى أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الاسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفى أنها قد استحالت من المحاجة والمجادلة الى حرب بالسيف انتهت باجلاء اليهود عن البلاد العربية . ولم يكن تاريخ هؤلاء اليهود فى بلاد العرب قبل الاسلام معروفاً على وجهه ، انما هى طائفة من الأخبار والأحاديث يرويها القصاص فى غير تحفظ ولا عناية بالدقة والتحقيق وتكثر فيها المبالغات من الناحية اليهودية والاسلامية لاغراض مختلفة معروفة . وكان المستشرقون قد عرضوا لهذا الموضوع من نواحى مختلفة فوفّقوا بعض التوفيق ولكن أخطأتهم الأصابة فى كثير من الأحيان لأن حظهم من الثقافة العربية السامية لم يكن يعدل حظهم من القدرة على استثمار مناهج البحث الحديث، فاضطروا الى طائفة من الأغلاط لم يكن منها بد . على أن مباحثهم هذه القيمة كانت وما زالت مجهولة فى الشرق العربى لا يلمّ بها الا الذين

يتخذون هذا النحو من العام غرضاً يسعون اليه ويقفون عليه جهودهم

فاذا كان عالمنا الشاب قد وفق الى الخير فى هذا الكتاب الذى قدّمه الى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه والذى أقدمه أنا الآن الى القرّاء سعيدا مغتبطا فتوفيقه مضاعف ، ذلك لأنه وفق الى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ، ووفق الى عرض مباحث المستشرقين حول هذا الموضوع فى اللغة العربية ولم تكن قد عرضت من قبل . ووفق بعبارة موجزة الى أن يبسط تاريخ اليهود فى البلاد العربية قبل الاسلام وأبان ظهوره بسطاً عامياً أدبياً لذيذاً ممتعاً فى كتاب كانت اللغة العربية فى حاجة اليه فأظفرها بهذه الحاجة

واذا كان لى أن أتمنى للدكتور اسرائيل ولفنسون شيئاً فانما أتمنى له مخلصاً أن يمضى فى عنايته بهذه الناحية من حياة اليهود والصلة بينهم وبين الأمة العربية بعد الاسلام كما عنى بها قبل الاسلام مهتدياً بهدى العلم الصحيح الذى لا يعرف ممالأة ولا مشايعة ولا يرى للعالم الا غرضاً واحداً مقدساً هو السعى الى الحق والجد فى الوصول اليه ؟

٢٠ يونيو سنة ١٩٢٧ — ط . حسين

تصدير

ان الذى يدرس تاريخ العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام ليلمس حاجة اللغة العربية الى مؤلف خاص فى تاريخ اليهود الذين لا ينكر أحد ما كان لهم من الأثر فى الجزيرة العربية لذلك العهد، ويعجب كيف حرمت اللغة العربية من مثل هذا المؤلف الى الآن ؟ . . . .

وأقرب ما يخطر بالبال فى تعليل هذا التقصير هو أن المتأخرين من مؤرخى العرب لم يلموا الماماً كافياً بتاريخ الجاهلية ، ولولا ذلك لما أغفلوا تاريخ قسم كبير من سكان الجزيرة كان له من الحوادث السياسية والوقائع الحربية والآثار الاجتماعية ما يستوجب أفراده بطائفة من المؤلفات ، إذ كان الباحث فى تاريخ الجاهلية يتوقف نجاحه على معرفة تاريخ اليهود فى بلاد العرب عامة وفى الاقاليم الحجازية بوجه خاص

وقد يرجع السبب فى هذا التقصير الى جهل المؤرخين بالنتائج العظيمة التى تترتب على معرفة تاريخ اليهود ، ولو أنهم اهتموا به لوجدوا فى المراجع العربية القديمة مادة غزيرة تمكن الباحث المحقق من سد هذا النقص وتعينه على التثبت من تاريخ العرب فى ذلك الحين

* * *

ان للبحث فى تاريخ يهود الجزيرة العربيــة أهمية عظيمة فى حل المشكلات التى يتخبط فيها كثير من الناس وإماطة اللثــام عن لهجات العرب ودياناتهم وعاداتهم لما بين اليهود والعرب من رابطة الدم ولما بين اللغة العبرية واللغة العربية من التشابه والاقتراب

ومع أنه قدوجدت أمم سامية قبل بنى اسرائيل بآلاف من السنين فان الباحثين يرون فى اللغة العبرية وآدابها مقياساً صالحاً للبحث فى جميع اللغات الساميــة ، إذكان بنو اسرائيل أقدم أمة ساميــة تركت ميراثاً روحانياً عظيما فى الادب والدين يعتبر اكبر مجموعة قديمة من أثر القريحة السامية ، لان الذى وصل الينا من آثار البابليين والاشوريين والآراميين ضئيل جداً بالقياس الى ما وصل الينا من تراث بنى اسرائيل . . .

على أن اللغة العبرية من أمهات اللغات السامية ، فقد كانت شائعة قبل نشوء بنى اسرائيل وظهورهم فى العالم إذكانت لغــة أهل فلسطين الكنعانية ولغة كثير من القبائل فى طور سيناء وشرق الاردن ، وكان من أهم تلك الامم بنو أدوم وعمون وموآب وقبائل عماليقية ومديانيــة واسماعيلية ثم ظهرت بطون بنى اسرائيل بين هذه الاقوام فى طور سيناء وأطراف الحجاز وانتشرت منها الى الاقاليم الاخرى [1] وبقيت هذه اللغة صاحبــة السلطان والنفوذ مدة طويلة الى أن ظهر تأثير احدى اللهجات الكنعانية وهى الآرامية ، فأخذت اللهجات العبرية والكنعانية الاصلية

---

(١) The relation between Arabs and Israelites prior to the rise of Islam ص ٩

To: www.al-mostafa.com

تضمحل مع التغييرات السياسية الى أن أصبحت أغلب بطون فلسطين وسوريا والعراق وطور سيناء تتكلم باللهجات الآرامية

ثم أخذت هذه اللهجات فى القرون الاولى ب . م تتدهور تدريجياً فى أطراف الجزيرة العربية ، وأخذت تنكمش وتتضاءل أمام اللغة العربية التى كانت فى ذلك الحين تمتد وتنتشر بسرعة حتى اضطرت بعض القبائل الآرامية والعبرية الى أن تختلط بالعنصر العربى الاصلى وتندمج فيه شيئاً فشيئاً (١)

وقد كنت فكرت فى أن أخص أقوام طور سيناء ببحث منفرد أكشف فيه بعض ما غمض من أحوالهم معتمداً على بعض الاخبار التى وصلت الينا من مراجع عبرية ويونانية قديمة ، وعلى بعض الاكتشافات القليلة التى ظهرت حديثاً عن هذه الاقوام البائدة ولكنى رأيت أن فى هذا خروجا عن الموضوع الذى نحن بصدده ، فأجلت هذا البحث الى فرصة أخرى . . .

على أن سكان طور سيناء وأطراف الجزيرة العربية من جهة الشمال الذين تعتبر بلادهم كقنطرة طبيعية بين بلاد العرب وبين فلسطين موطن بنى اسرائيل ، قد أثروا تأثيراً شديداً فى العرب وبنى اسرائيل معاً ، فليس فى استطاعتنا والحالة هذه أن نوفى موضوعاتنا حقها من البيان والتفصيل إلا بعد النظر الطويل والبحث العميق فى تاريخ تلك الامم وحاجتنا الى هذا الموضوع فى بحثنا هذا كحاجة الباحث فى تاريخ

---

(١) راجع مقالنا عن اللغة الآرامية ولهجاتها المنشور فى السياسة الاسبوعية بتاريخ ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٦

روما القديم الى الالمام بتاريخ بطون وقبائل لاتينية ويونانية قديمة عاشت فى بلاد ايطاليا قبل نشوء مدينة روما

* * *

لقد صرح لى غير واحد من الاصدقاء بانهم يوجسون خيفة من ثوران عواطف بعض الاندية من المسلمين واليهود من جراء التعرض لموضوع الخلاف الذى نشأ بين الرسول ويهود يثرب ، وأن ميلنا الى احدى الفئتين قد يكون سبباً فى اثارة سخط الطائفة الاخرى

لكننا نعتقد أن رسالتنا موجهة الى طائفة المفكرين الذين لاينشرون دعوة خاصة فى كتاباتهم ، بل يقصدون دائمًا الى البحث المجرد عن العواطف القومية والدينية

وما من أحد ينظر بامعان وانصاف الى حوادث اليهود والانصار فى يثرب دون أن تمتلئ نفسه بشعور الاجلال للفئتين ، لأن النضال العنيف الذى وقع بينهما قد برهن على أن هذا النزاع كان من الأمور المقدرة فى حسبان كل من تتبع الحوادث التى وقعت فى المدينة بعد أن هاجر اليها الرسول ، فقد كانت الضرورة الطبيعية لنجاح مشروعات المسلمين تقضى حتما بوقوع العراك الشديد بين الطرفين

ومن أجل ذلك فقد تغيرت الحالة تغييراً جوهريًا بعد أن انتهت الخصومة السياسية بين الرسول وبطون يثرب ، حتى شرع اليهود ينظرون بعيون الاكبار والاحترام الى جيوش المسلمين التى كانت تغمر كالسيل أقطار العالم ونواحيه ، وكانت هذه الجيوش قد قضت على سلطة الدولة الرومية فى أقاليمها القاصية والدانية ، تلك الدولة التى ملأت تاريخها

بحوادث الظلم والعسف واهراق الدماء مدة طويلة من الزمان

وقد كان اليهود فى أغلب مدن العراق يخرجون لاستقبال جيوش المسلمين بالحفاوة والاكرام لانهم كانوا يؤثرونهم على غيرهم إذ يرون فيهم قوماً يؤمنون بآله موسى وابراهيم

ولقد ازدادت هذه الروابط متانة مع امتداد الزمن حتى دخل اليهود فى جيوش المسلمين ليناضلوا معهم فى أقاليم الاندلس

وينبغى ألا يغيب عن البال أن الخسارة القليلة التى لحقت يهود بلاد الحجاز ضئيلة بالقياس الى الفائدة التى اكتسبها العنصر اليهودى من ظهور الاسلام ، فقد انقذ الفاتحون المسلمون آلافاً من اليهود كانوا منتشرين فى أقاليم الدولة الرومية ، وكانوا يقاسون ألوانا شتى من العذاب

زد على هذا أن اتصال اليهود بالمسلمين فى الاقاليم الاسلامية كان سبباً فى نهضة فكرية عظيمة عند اليهود بقيت آثارها فى تاريخ الآداب العربية والعبرية زمناً طويلا . . .

* * *

ويجمل بنا أن نلفت الانظار الى أننا نسبنا كل ما لم يكن من رأينا سواء كان كبيراً أو صغيراً الى صاحبه وذلك قد يتطلب فى أغلب الظروف جهداً غير قليل

أما الآراء التى لم ننسبها لغيرنا فهى بطبيعة الحال جديدة وبعضها عرضة للنقد والشك ونعتقد أنه لو رجحت صحتها لكان ذلك لنا مكافأة عظيمة يرتاح لها الضمير ويطمئن اليها الخاطر

* * *

ولا يسعني بعد هذا الا أن أرفع خالص الشكر للقائمين بأمر الجامعة المصرية وأساتذتها الأجلاء

وبهذه المناسبة أقدم تمنياتي الطيبة وعاطر ثنائي لحضرة الاستاذ العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار الذي أسدى الىّ الكثير من النصح والارشاد

أما رجل اليوم أستاذي الدكتور طه حسين الذي تفضل وقبل الاشراف على رسالتي وبذل الكثير من وقته الثمين في قراءتها فالى نبوغه النادر المثال في النقد يرجع الفضل في هدايتي الى بعض دقائق هذا البحث الذي أرجو أن يظفر برضاء القراء الكرام والسلام

٢٤ يونيه سنة ١٩٢٧ اسرائيل ولفنسون
(ابو ذؤيب)

نقدم جزيل الشكر الى لجنة التأليف والترجمة والنشر التي كلفت نفسها مؤنة الانفاق على طبع كتابنا هذا ، وليس ذلك بغريب من هيئة اللجنة التي جعلت ديدنها العناية والاهتمام بنشر العلوم والمصنفات

٢٥ يونيو سنة ١٩٢٧ المؤلف

المدينة المنورة (يثرب)

مقياس الرسم ١ : ١٢،٥٠٠

ملحوظات : (١) الجامع الكبير (٢) قبة النبى (٣) جبانات

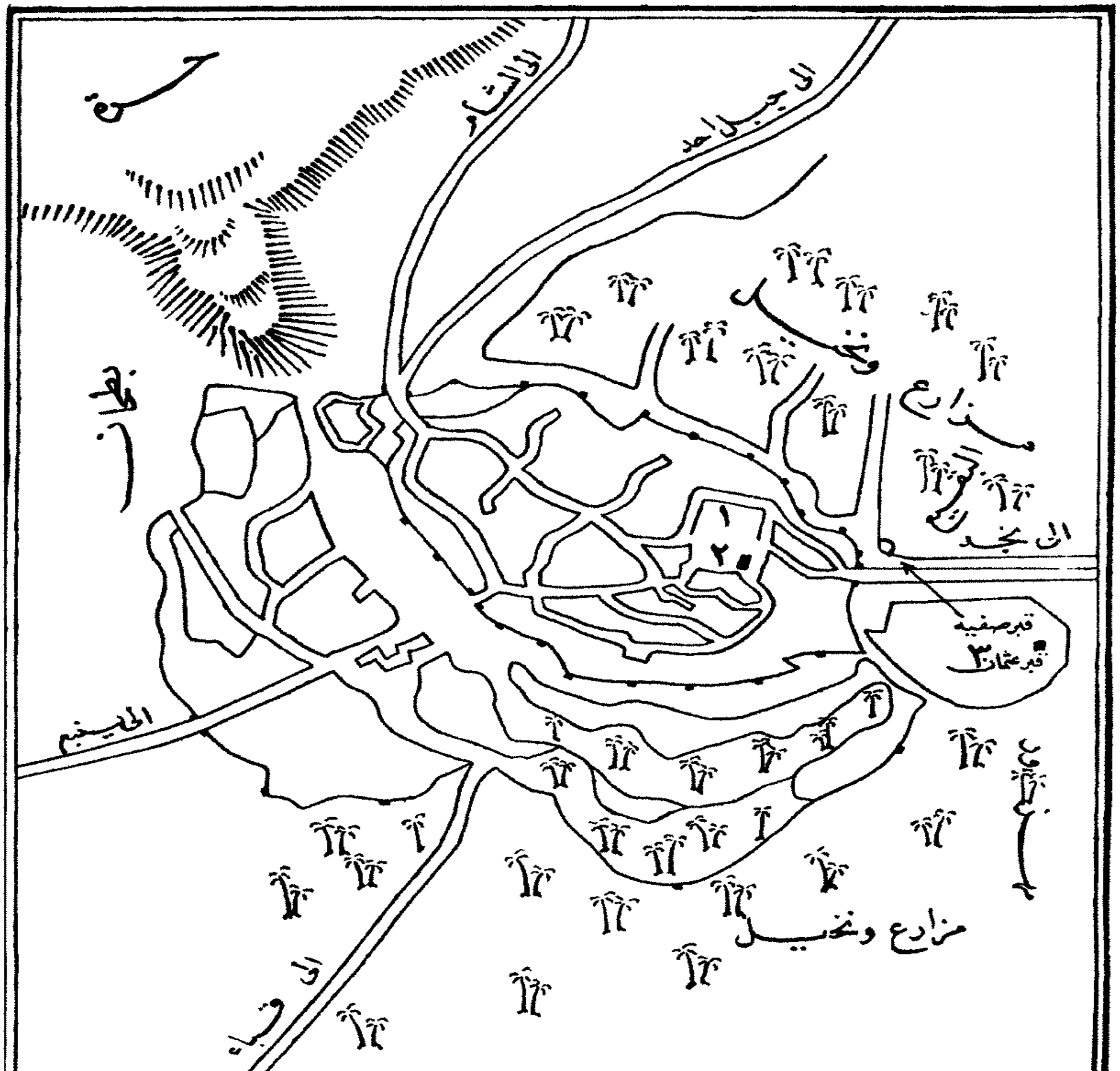

وضعت لكتاب تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام . للدكتور اسرائيل ولفنسون .

ـ بعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم نزلا سواها فخرج حتى أتى العالية وهى بطحان ومهزور واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر فرجع اليهم فقال قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها الى حرة يصب فيهما واديان على تلاع عذبة ومَدَرَة طيبة فى متأخر الحرّة فتحول القوم اليها من منزلهم فنزل بنو النضير ومن معهم على مهزور وكانت لهم تلاعه وما تبقى من بعاث ومموات فكان ممن يسكن المدينة حتى نزلها الاوس والخزرج من قبائل بنى اسرائيل بنو عكرمة و بنو ثعلبة و بنو محمر و بنو زعورا و بنو زيد و بنو النضير و بنو قريظة و بنو بهدل و بنو عوف و بنو القصيص فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود . . . . وكان هناك معهم من غير بنى اسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حى من اليمن و بنو مرثد حى من بلى و بنو نيف حى من بلى أيضا و بنو معاوية حى من بنى سليم ثم من بنى الحارث بن بهثة و بنو الشطية حى من غسان . . . .(١)

و بقيت هذه البطون العربية على أديان آبائها القديمة ولم تعتنق اليهودية فعدت من موالى اليهود

وكانت هناك قرى كثيرة فى أرض خيبر الواقعة شمال يثرب آهلة با كثرية مطلقة من اليهود ثم هناك وادى القرى المشهور بارضه الخصبة وحدائقه الزاهرة كان أيضا من المستعمرات اليهودية و وجد اليهود أيضا بكثرة فى أرض تيماء . . .

ومن هذا يتضح ان جموع اليهود كانت منتشرة فى شمال الحجاز

و يظهر جليا من أقوال بعض مؤرخى العرب(٢) ان بطونا عربية كثيرة قد اختلطت بالعنصر اليهودى فى بلاد الحجاز وأثرت فى أخلاقه وعاداته تأثيرا ظاهرا ولكنها لم تستطع أن تتغلب على عقليته الأصلية بل بقى هذا العنصر ممتازا

---

(١) جزء ١٩ ص ٩٥ الاغانى

(٢) راجع مانقلناه من كتاب الاغانى عن يوم بعاث فى الباب الثالث

بعقليته امتيازا ظاهرا

وينكر المؤرخ اليعقوبي وجود طوائف يهودية أصلية كثيرة فى الحجاز بل يعتقد أن أغلبها من العنصر العربى وأقلها من العنصر اليهودى ويقول ان بنى النضير فخذ من جذام الا أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به ونزل بنو قريظة بجبل يقال له قريظة فنسبوا اليه (١)

ولكن من جهة أخرى تجتهد طائفة من المؤرخين الافرنج فى أن تجد لبعض أسماء القبائل اليهوديه اشتقاقا عبريا (٢)

على أن الاستدلال ببحث لغوى كهذا على جنسية اليهود فى بلاد العرب لا يمكن أن يعتمد به أو يعول عليه فمن الحق ان أسماء أكثر القبائل اليهودية عربية محضة كما يقول اليعقوبى ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس اذ يمكن أن تكون جموع اليهود التى هاجرت الى بلاد العرب قد اتخذت أسماء الأمكنة التى نزلت بها أسماء لها بل الواقع ان اليهود فى دورهم الثانى لم يكونوا يعرفون بانسابهم بل عرفوا كلهم بأسماء المدن والقرى والأقاليم التى جاءوا منها فكان يقال مثلا فلان الاورشليمى والآخر الحبرونى وهكذا . . . نعم كان بنو اسرائيل فى دورهم الأول ينتمون الى قبائلهم فكان يقال مثلا فلان من سبط يهوذا والآخر من قبيلة افرايم وكان اليهود فى وطنهم الاصلى قبل ان تحل بهم تلك الرزايا التى شتتت شملهم وفرقتهم أيادى سبا قد وصلوا الى درجة عظيمة من المدنية والحضارة و بلغوا مكانا عليا فى الرقى الروحانى والاجتماعى حتى امحى من بينهم نظام القبائل وصاروا أمة واحدة مندمجة اندماجا كليا حتى نسى الافراد فكرة التفاخر بالانتساب الى قبائلهم ونسيت القبائل عادة الانقباض والاحتراس من أن تختلط دماؤها بدماء القبائل الأخرى بل أصبح المجموع للافراد والافراد للمجموع كما هو شأن جميع الأمم التى تنتقل من طور البداوة الى طور الحضارة

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٩ — ٥١ طبع ليدن
(٢) ג״ד ج ٣ ص ٧٦

وقد أشار التلمود الى مسـألة الانساب الاسرائيليـة مبينا انها ضاعت وذكر ان سبب ضياعها هو أن الملك هرودس اليهودى أحرق كتب الانساب الاسرائيلية (١)

ومن هنا نعرف السبب فى أن اليهود الذين نزحوا الى بلاد العرب لم يكونوا باكثر من أنهم يهود فحسب وفى أنهم لم يكونوا يتمايزون فيما بينهم الاباسماء الأماكن التى جاءوا منها

والطريقة المثلى لمعرفة جنسية اليهود فى بلاد العرب إنما هى النظر فى الاخلاق والتقاليد واتجاه الافكار والاعمال

ومن هـدا السبيل نستطيع أن نحكم بان يهود يثرب خصوصاً وشمال الحجاز عموماً أقرب الى العنصر اليهودى منهم الى العنصر العربى نظراً لما وصفهم القرآن الكـريم

أقام اليهود الحصون والآطام على قمم الجبال ليتحصنوا بها فى أوقات الحروب حين يغزوهم الاعراب الطامعون فى أموالهم وحاصلاتهم الزراعية أو حين تغزوهم بطون يهودية أخرى لسبب من الأسباب

ويرجح أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبـال فى شمال الجزيرة العربية إنما أتى بها اليهود من وطنهم الاصلى الذى كثرت فى جباله الحصون المنيعة

ومن هذه الحصون التى أقامها اليهود فى بلاد العرب حصن الأبلق للسموءل وحصن القمومى لبنى أبى الحقيق وحصون السـلالم والوطيج وناعم وسعد بن المعاذ الخ . . .

وقال السمهودى ان قبائل اليهود تنيف على العشرين وعدة آطامهم وآطام من نزل معهم من العرب تزيد على السبعين جاء النهى عن هدمها (٢)

---

(١) פסחים סב

(٢) خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى ص ٨٠

ومع ان أغلب أسماء البلدان والأماكن التى سكنها اليهود فى الحجاز كانت عربية فقد وجد لبعضها اتصال باللغة العبرية مثل وادى بطحان فان معناه بالعربية الاعتماد و وادى مهزور أو محزور معناه مجرى الماء وقال السمهودى سمران جبل بخيبر صلى النبى على رأسه والعامة تسميه مسمران وضبطه بعضهم بالشين المعجمة(١) فاذا علمنا ان فى فلسطين جبلا يسمى شمران أمكننا أن نستنتج أن سمران هذا انما هو لفظ عبرى أطلقه اليهود على ذلك الجبل بعد ان نزلوا بجانبه

و يؤكد صحة هذا الاستنتاج ما قاله السمهودى من ان بعضهم ضبطه بالشين المعجمة . ثم بئر أريس فانها نسبة الى رجل يهودى اسمه أريس بلغة أهل الشام(٢) ولكننا نعتقد أن هذا الاسم فى الأصل غير علم بل هو نكرة يطلق فى اللغة العبرية والآرامية على الفلاح الحارث . و بئر روما اشتراها عثمان من يهودى(٣) ومعناها بالعبرية البئر العالية (באר רמה)

وانما ذكرنا هذه الطائفة من الأسماء و بينا علاقتها باللغة العبرية لنستدل منها على أن اليهود فى بلاد العرب لم يقطعوا صلتهم بلغتهم الأصلية

والعلماء المؤرخون يهتمون بمثل هذه المسائل ليستدلوا بها على مبلغ تأثير اللغة العبرية فى اليهود وليتوصلوا الى معرفة موضوعات مختلفة من تاريخ العرب فى الجاهلية وفى عصر ظهور الاسلام

* * *

أدخل اليهود الى بلاد العرب أنواعاً جديدة من الأشجار وطرقاً جديدة للحراثة والزراعة بالآلات حتى عدوا من أجل هذا أساتذة لعرب الحجاز(٤)

---

(١) ص ٢٨١ خلاصة الوفاء
(٢) خلاصة الوفاء ص ٢٢٦
(٣) ص ٢٣٢ خلاصة الوفاء
(٤) Wellhausen : Skizzen & Vorarbeiten Heft 4 ص ١٤

(٢)

To: www.al-mostafa.com

ومنهم من حفر الآبار فى الأراضى العالية [١] ومن أجل هذا كانت أراضيهم أخصب بلاد العرب .

وكان اليهود يشتغلون بتربيـة الماشية [٢] والدجاج [٣] وكانوا فى جهات مقنا يشتغلون بصيد الأسماك وكانت نساؤهم تشتغل بنسج الأقمشة [٤]

وكانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كابى رافع الخيبرى الذى أرسل بضاعتـه بواسطة القوافل الى الشام واستورد منها الأقمشة المختلفة [٥]

ويمكن أن يقال ان تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصـة بهم فى شمال الحجاز . ونظراً لما كان عندهم من مال وثروة فقد كان كثير من الأعراب يرهنون عندهم بعض الأمتعة ليستدينوا منهم ما يحتاجون اليه [٦] كما يقال عن النبى محمد انه رهن درعاً بالمدينة عند يهودى وأخذ منه شعيراً لاهله [٧]

وكان أخذ الربا شائعاً عندهم حتى أن القرآن وجه اليهم بسببه أشـد تقريع وأعنف تأنيب « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً اليما » [٨]

ولكن التعامل بالربا فى تلك العصور لم يكن خاصاً بهم بل كان العرب جميعاً يتعاملون به ولا يرون فيه شيئاً معيباً مطلقاً بل كانوا يعتبرونه نوعاً من البيع وكان

(١) Wustenfeld : Geschishte der Stadt Medinah ص ٢١

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ١٨٥

(٣) ابن هشام جزء ٣ ص ٢٨٢

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٦٠

(٥) تاريخ الخميس للديار بكرى جزء ٢ ص ١٢

(٦) البخارى جزء ٢ ص ١١٦

(٧) البخارى جزء ٢ ص ١٦ و ٤٥

(٨) سورة النساء ١٥٨

للمتعامل بالربا فى مدينة الطائف شهرة فائقة عند جميع مدن الحجاز (١) وكذلك كان نصارى نجران يتعاملون بالربا (٢)

ومن الصناعات التى كان اليهود فى بلاد العرب يزاولونها، صناعة الصياغة التى اشتهر بها بنو قينقاع اذ لم يكن لهم صناعة سواها وكان لهم فى يثرب حى خاص يعرف بحى بنى قينقاع

وقد جاء فى الاغانى أن النابغة الذبيانى أقبل الى المدينة يريد سوق بنى قينقاع فلما أشرف على السوق سمع الضجة وكانت سوق عظيمة فحاصت به ناقته فأنشأ يقول: كادت تهال من الأصوات راحلتى . . . ما رأيت كاليوم قط لولا أنهنهتها بالسوط لاجتذبت ، قد ملت الحبس فى الآطام واشتعفت (٣)

وكانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية التى كانت معروفة فى بلاد الجزيرة فى ذلك الزمن (٤)

ولا غرو أن يكونوا كذلك فن صناعة الدروع المسرودة اشتهر بها داود (وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد) سورة سبأ

أما الزراعة فكانت مهنة بقية البطون التى كانت تعيش فى القرى وكانت مجموعة الدوائر الزراعية لتلك البطون هى التى تكونت منها مدينة يثرب كما يتضح ذلك من وصف السمهودى المدينة (٥)

وكذلك كانت الحال فى خيبر وفى وادى القرى وتيماء التى اشتملت على أرياف كثيرة

(١) فتوح البلدان ص ٦ ه

(٢) فتوح البلدان ص ٦٤ — ٦٦

(٣) هذه الشطرات مأخوذة من الاغانى جزء ٢١ ص ٦٢ وهى هناك حوار بين النابغة والربيع ابن ابى الحقيق وقد اكتفينا بهذه الاشارة مراعاة للسياق

(٤) كتاب المغازى للواقدى ص ٢٧٢

(٥) خلاصة الوفاء للسمهودى ص ٨٠

وفوق ذلك فقد كان لليهود شغف بفنون القتال والنضال وقد اشتركوا مع العرب فى بعض حروبهم المشهورة

ويتضح لنا من جواب بنى قينقاع الذى بعثوا به الى الرسول بعد يوم بدر انهم كانوا ذوى قوة و بطش إذ يقولون فيه : يا محمد لا يغرنك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم الفرصة انا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس (١) كذلك نجد عبدالله بن أبى يفتخر بشجاعة مواليه بنى قينقاع ... (٢)

***

أما لغة اليهود فى بلاد العرب فكانت بطبيعة الحال اللغة العربية ولكنها لم تكن عربية خالصة بل كانت مشوبة بالرطانة العبرية لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركا تاماً بل كانوا يستعملونها فى صلواتهم ودراستهم فكان من الضرورى أن يدخل فى عربيتهم بعض الكلمات العبرية

وقد ذكر صاحب فتوح البلدان أن يهود يثرب كانوا أساتذة العرب فى تعلم الكتابة العربية (٣)

ويقسم القرآن يهود الحجاز الى قسمين : أحبار وجهلة أميين « ومنهم أميون لا يعلمون الكتابة الا أمانى وإن هم الا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا »(٤) وكلمة حبر هذه عبرية الأصل إذ معناها الرفيق (חבר) وقد كانت تطلق فى العصور الاولى ق.م على كل عضو من أعضاء الشيعة اليهودية الدينية الفروشيم (פרושים) ثم لما

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٥
(٣) البلاذرى ص ٤٧٣
(٤) سورة البقرة ٧٢

تغلبت تعاليم هذه الفئة أصبح كل متعلم من اليهود يلقب بلقب حبر[١] ولذلك كان الاحبار موضع الاحترام العظيم كما يتضح لنا من قصة لابن هشام « قال عبد الله بن سلام فأدخلنى رسول الله فى بعض بيوته ودخل عليه بعض اليهود وكلموه ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا [٢]

وكان من أعمال الأحبار أن يتولوا القضاء ويفصلوا للناس فيما شجر بينهم كما كانوا أصحاب الأمر والنهى فى كل الشؤون الدنيوية كما يقول القرآن الكريم « لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون [٣] وكان اليهود يستأنفون الصلاة ثلاث مرات فى كل يوم وكانت قبلة اليهود أثناء الصلاة متجهة الى بيت المقدس كما كانت قبلة رسول الاسلام الى زمن هجرته للمدينة اذ يحدثنا ابن هشام أن الرسول كان يغدو بمكة وقبلته الى الشام فكان اذا صلى صلى بين الركنين البرانى والاسود وجعل الكعبة بينه و بين الشام[٤]

وقد يؤكد حديث البخارى هذا القول إذ يقول إن رسول الله كان أول ما قدم المدينة يصلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكانت اليهود قد أعجبهم اذا كان يصلى قبل بيت المقدس[٥]

ويحدثنا ابن هشام أن يهود يثرب كانوا يدعون الناس للصلاة بالنفخ فى البوق[٦]

---

(١) הסטוריה ישראלית جزء ٢ ص ٩٩
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠٩
(٣) سورة المائدة ٦٨
(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٧١ و ص ٣١٤
(٥) البخارى جزء ١ ص ١٨
(٦) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠١ البخارى جزء ١ ص ١٠٦

وكان اليهود يصومون فى العاشوراء فلما قدم النبى محمد المدينة ورآهم يصومونه قال ما هذا ؟ قالوا هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى قال فأنا أحق بموسى منكم فصامه فأمر بصيامه وكانت اليهود تعده عيداً (١)

***

واذا وُفّقنا الى أن نميز بين يهود الحجاز والعرب من وجهة الدين والعقلية فانه من المتعذر أن نوفّق الى التمييز بين العنصرين من وجهة الاخلاق والعادات والنظم والتقاليد الاجتماعية لان اليهود الذين سكنوا فى بلاد العرب لم يلبثوا أن تخلقوا بأخلاق العرب وتمسكوا بعاداتهم واتبعوا سبيلهم فى النظم والتقاليد الاجتماعية حتى أصبحوا كأن لم يكونوا من جنس آخر غير الجنس العربى

ولا أعلم فى تاريخ اليهود القديم اقليما تأثر فيه اليهود باخلاق وعادات وتقاليد أبنائه الى هذا الحد سوى اقليم الجزيرة العربية

كان اليهود فى تفاخرهم وتشاجرهم على حد ما كان العرب تماما فى جميع ذلك وكذلك كانوا مثلهم فى التمدح بالشجاعة وعلو الهمة واكرام الضيف والنفور من الجبن والبخل وكانوا يوقدون النيران فى الليل ليرشدوا السائرين وليدعوهم الى الضيافة والاكرام (٢) كما كان يفعل العرب إعلاء لشرفهم وصيانة لمجدهم .

ذكر ابن هشام ان حى بن أخطب أتى كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وكان قد أودع رسول الله على قومه وعاقده على ذلك فلما سمع كعب بحى ابن اخطب اغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حى افتح لى اكلمك قال ما أنا بفاعل قال والله ان أغلقت الحصن دونى الا تخوفت

---

(١) البخارى جزء ١ ص ٤٩٨

(٢) الواقدى ص ١٧٠

حشيشتك أن آكل منها فأحفظ الرجل ففتح له(١)

وكما ان قرض الشعر كان طبيعة من طبائع العرب وسجية من سجاياهم وطريقة من أجل طرق التعبير والتفكير لديهم حتى كان المفكر العربى يسترسل فى القول الموزون استرسالا يَسْحَرُ العقولَ و يأخذ بالألباب كذلك اندفع اليهود فى قرض الشعر باللغة العربية اندفاعا قويا فجعلوا ينظمون الأبيات البديعة والقصائد المتينة فى الكرم والوفاء والشجاعة وفى وصف البلدان والحيوان وفى وصف جمال المرأة والتشبيب بها . . . . وبالاجمال كل ما كان يحرك نفس العربى ويدعوه الى قرض الشعر من تهديد ووعيد ومدح وثناء وذم وهجاء ووصف وفخر كان يحرك نفوس الشعراء من اليهود فى الجاهلية ويدعوهم الى أن يخوضوا فيه بالقول الفصل والشعر المتين

بيدان ما وصل الينا من شعر يهود الجاهلية قليل جدا لا يعدو بضع قصائد وأبيات مبعثرة فى أمهات كتب الأدب العربى

وهكذا أفقدتنا الحوادث الكثيرة أكثر تلك الثروة الأدبية من أولئك اليهود الجاهليين ولم تترك لنا منه حتى ما يمكن الباحث الناقد أن يكون له رأيا واضحا عن عقليتهم وتمييز شخصياتهم بعضها من بعض

يقول استاذى الدكتور طه حسين : أما أثر اليهود الادبى فيسير الفهم لاننا نعلم كيف تؤثر هذه الحركات فى العقول ولا سيما عند العرب ونزيد على أثرهم العقلى انهم كانوا بعدائهم للأنصار ومحاربتهم اياهم شؤما على الادب العربى وسببا فى ضياع الكثير منه واختراع الكثير . . . ويصل الدكتور بعد بحث طويل الى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود

(١) ان لليهود فى الأدب العربى أثرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين العرب و بين اليهود

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٢) ان اليهود قالوا كثيرا من الشعر فى الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب

ان اليهود انتحلوا شعرا لاثبات سابقتهم فى الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب . . . (١)

والذى حملنى على أن أثبت بعض نظريات استاذى الدكتور طه حسين بصدد شعراء يهود الجاهلية هو :

(١) انى قد جمعت كل ما ينسب الى شعراء اليهود فى الجاهلية ولم أجد فيه فرقا ظاهرا يميزه عن بقية الشعر الجاهلى فى حين ان هناك فرقا شاسعا لا يخفى بين اليهود والعرب من وجهة الدين والعقلية واتجاه الأفكار(٢)

(٢) لا شك فى أن اللغة العبرية تركت فى أشعارهم آثارا ظاهرة خصوصا فيما يتعلق بالشعر الدينى (Liturgie) فقد كانت النزعة الدينية قوية فى نفوس يهود الحجاز فليس ممكنا أن لا يوجد هناك شعر دينى يمجد التوحيد وآل موسى وأنبياء بنى اسرائيل ويحط من قيمة الأصنام وعبادتها لان مثل هذا النوع قد ظهر فى الادب اليهودى فى كل عصوره القديمة

(٣) ان الذى يمعن نظره فى قصائد السموءل يتضح له جليا انها قد طرأ عليها كثير من التقلبات والتغييرات حتى ليتعذر على الباحث أن يميز القديم منها والحديث أو يفرق بين الصحيح والمنتحل

هذا الى أن الابيات القليلة التى وصلت الينا من شعر اليهود لا تكفى لتخليد أسماء شعرائها مما يجعلنا نجزم بأنه قد كان هناك شعراء مجيدون ولكن ضاع شعرهم ولم يبق لهم منه الا أسماؤهم كأنها صدى ما كان لهم من شهرة وبعد صوت

---

(١) مجلة الجامعة المصرية سنة ثالثة ص ٧٨ من العدد الاول

(٤) اذا كان العرب أنفسهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على شعر آبائهم وأجدادهم مع انهم ظلوا كما كانوا عليه لم يصبهم شيء سوى تغيير العقيدة فبقيت لهم لغتهم وتقاليدهم فكيف كان من الممكن أن تحتفظ بشعرها أمة غُلبت على أمرها حتى فنى منها من فنى وهاجر منها من قُدّر له أن يعيش ولكن فى غير البلاد التى نشأ فيها واطمأن اليها وضاعت وراثتهم الروحية ولم يبق لهم ذكر فى البلاد العربية

ليس من السهل انكار وجود شعراء من اليهود فى الجاهلية فقد اشترك اليهود مع العرب فى جميع المرافق الحيوية فى الجزيرة العربية من اقتصادية وسياسية فبعيد كل البعد ألا يشتركوا معهم فى النهضة الفكرية والشعرية

ووجود علاقة دموية متينة بين اليهود والعرب يثبت اشتراك العنصرين فى النزعة الشعرية وانها كانت مطبوعة فى النفس اليهودية وكامنة فيها قبل أن يسكن اليهود فى الجزيرة العربية فلما انتقلوا اليها واختلطوا بالعرب وتخلقوا بأخلاقهم نمت هذه النزعة الفطرية وأزهرت ثم أثمرت ثمرها الشهى فقرض اليهود الشعر العربى ارتجالا وتكلفاً

وعندى أن السبب فى قلة ما وصل الينا من شعر اليهود فى الجاهلية ومن أسماء شعرائهم إنما يرجع الى ضعف اقبال اليهود على اعتناق الاسلام والذى حافظ على القليل الذى وصل الينا هم اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ومن تناسل منهم تخليداً لما كان لأجدادهم من مجد أثيل وشرف عظيم

وقد يجوز أنه لولم يسلم بعض الأفراد من ذرية السموءل لما وصل الينا من شعره كثير ولا قليل ولا سمعنا حتى ولا باسمه

ويظهر أن الشعراء اليهود الذين وصل ذكرهم الينا كانوا يعيشون فى القرن السادس ب م. فأدرك بعضهم العصرَ الاسلامى

ولم نعرف منهم من هو أعظم شهرة وأبعد صيتاً من السموءل بن عادياء الذى يُشْعِر اسمه بأن أصله عبرى رغم ما وجد عنـد بعض الأدباء الأقدمين من الميل الى إثبات أن هناك صلة بينه و بين بعض الأسماء العربية وقد وجدوا لهذا الاسم فى العربية معانى مختلفة فهو اسم لطائر يكنى أبا براء وهو أيضاً الظل وذباب الخل السريع (١)

ولا نعرف من ترجمة حياته سوى النزر اليسير

وقال صاحب الأغانى انه من يثرب (٢) وكان صاحب تيماء التى عرفت بتيماء اليهودية وعليها حصنه الابلق الفرد يشرف على تيماء بين الحجاز والشام على رابية من تراب فيه آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنها من عظمة وحصانة وهى خراب (٣)

وأما الأب الذى طبع ديوان السموءل حسب رواية أبى عبد الله نفطويه فله زعم غريب فى السموءل ذلك انه يزعم أن السموءل كان نصرانياً ويستند فى زعمه على ما يأتى :

(١) ان السموءل كان ينسب الى غسان وغسان كانت نصرانية

(٢) انه فى بعض أبيـات تنسب للسموءل ذكر للسيد المسيح والحوار بين

أما هذه الأبيات التى استدل بها الاب شيخو فهى ما جاء فى ديوان الحماسة لابى تمام فى آخر اللامية المشهورة للسموءل

فان بنى الديان قطب لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجول

وكان بنو الديان كما وضح الاب شيخو من نصارى نجران (٤)

(١) قاله فى التاج ص ٧ ج ٣٨٢ راجع ديوان السموءل طبع الاب شيخو ص ٤

(٢) جزء ٦ ص ٨٢

(٣) معجم البلدان لياقوت نمرة ٦٥٣

(٤) راجع مقدمة الاب شيخو لديوان السموءل

لكن التبريزى يقول فى شرحه لهذا البيت انه لعبد الله الحارثى لا للسموءل[١]

... وقبل أن أتعرض لمزاعم الأب شيخو أريد أن أمدح فيه غيرته الدينية اذ هى التى كانت الدافع الأكبر له على طبعه ديوان السموءل وجمعه كل ما قاله العرب فى عصورهم المختلفة عن السموءل وهى التى دفعته الى أن يبذل مجهودا عظيما فى سبيل اظهار ديوان السموءل مقروناً بالشرح المفصل والملاحظات السديدة

ولم تقف نزعته الدينية عند هذا الحد بل حملته على أن يبذل مجهوداً شديداً آخر فى سبيل جمع أشعار أغلب شعراء الجاهلية فى مؤلف واحد وتنظيمها تنظيما بديعاً وشرح ما فيها من كلمات غريبة كما جاء بارشادات الافرنج فى هذا الموضوع وقد أطلق على هذا السفر النفيس اسم شعراء النصرانية بالرغم من ان الحقيقة التاريخية لا تسمح له بهذه التسمية

ولكنه وقد أبى على السموءل أن يكون يهودياً بالرغم من أنه لم يشك أحد فى يهودية السموءل فليس عجيباً منه أن يدعى أن جميع الشعراء الذين جمع شعرهم فى سفره ليسوا الا مسيحيين

أما من جهة نسبه فلسنا ننكره ولا ننفيه لأن علماء العرب قد اختلفوا فى نسب هذا الشاعر اختلافاً كثيراً فبينما الأغانى يقول فى موضع انه السموءل بن عادياء[٢] إذا به فى موضع آخر يقول : ان غريضاً اليهودى هو السموءل بن عادياء[٣]

و بينما الميدانى فى أمثاله يقول انه السموءل بن حيان عادياء[٤] اذا بتاج العروس يقول انه السموءل بن أوفى بن عادياء[٥] واذا بصاحب معاهد التنصيص

---

(١) ديوان الحماسة لابى تمام طبع الرافعى ص ٣١
(٢) الاغانى جزء ١٩ ص ١٢
(٣) الاغانى جزء ٣ ص ١٢
(٤) امثال الميدانى جزء ٢ ص ٢٧٦ طبع مصر
(٥) تاج العروس طبع مصر جزء ٧ ص ٣٨٢

يقول انه ولد الـكاهن هارون بن عمران [١] و بينما يقولون ان قبيلته غسان اذا بغيرهم يقول ان أمه فقط التى كانت من غسان

ونحن ازاء هذا الاختلاف والاضطراب فى نسب السموءل لا نستطيع أن نطمئن الى رأى

لـكن سواء صح أن السموءل كان من غسان أو لم يصح فليس يدل ذلك على أنه كان نصرانياً بل ليس يدعو للشك فى صحة ما أجمع عليه المؤرخون من انه كان يهودياً ومن ذا الذى يستطيع أن يأتى ببرهان قاطع على أن كل بطون غسان كانت قد تنصرت بل المرجح أن البطون الغسانية التى لم تذهب الى حدود الشام بقيت على وثنيتها وان هناك بطناً من بطون غسان كونت حيا من أحياء مدينة يثرب [٢]

ومهما يكن من شىء فليس يصح للعالم المحقق أن يستدل بدين بعض بطون قبيلة واحدة على دين كل بطونها فليس من شك فى انه كانت هناك قبائل تدين بطونها بديانات مختلفة

ومن العجيب أن الأب المحترم لا ينكر أن شعبة بن غريض أخا السموءل صاحب حصن تيماء اليهودية كان يهودياً فكيف ينكر يهودية الأخ الآخر

والذى قلمه عن بطون غسان يقال أيضاً عن آل بنى ديان لـكننى أضيف اليه أن الاسم « ديان » على العموم كان من الأسماء المشهورة عند اليهود فكانت كل الأسر التى تحتكر لنفسها مراكز القضاء الشرعى عند اليهود تعرف باسم آل ديان (م٦) فمن المحتمل أن السموءل الذى كان ينتمى على قول بعض المؤرخين الى الـكهان كان والده أو بعض أجداده حاكما شرعياً فأطلق على الأسرة اسم ديان

(١) معاهد التنصيص طبع مصر جزء ١ ص ١٣١

(٢) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٥

يلاحظ الأب الفاضل على ترجمة نفطويه للسموءل ويقول : وفى ديواننا هذا يدعوه الراوى يهودياً وليس قوله مقنعاً (١) وقد تبينت انه مقنع !! . . .

أما الأبيات التى جاء بها ذكر السيد المسيح والحواريين فواضح أن من السهل على أى شاعر نصرانى أن ينحلها السموءل فى القصيدة التائية المنسوبة اليه وهذه بعض أبيات القصيدة ننقل منها ما يتعلق بموضوعنا

مدح من يعف عن الرزق الحلال

ينفع الطيب القليل من الرز
ق ولا ينفع الكثير الخبيت (٢)
فاجعل الرزق فى الحلال من الكسـ
ـب وبرا سريرتى ما حييت

خمسة ابيات ملفقة

وأتتنى الانبـاء عن ملك داو
د فَقَرّت عينى به ورضيت
وسليمان والحوارى يحي
ومتى يوسف كانى وليت
وبقايا الاسـباط أسباط يعقو
ب دراس التوراة والتـابوت
وانفلاق الامواج طورين عن مو
سى وبعد المملك الطالوت
ومصاب الافريس حين عصا الا
ه واذ صاب حينـه الجالوت

---

(١) ديوان السموءل ص ٥

(٢) فى نوادر ابى زيد الانصارى طبع بيروت (ص ١٠٤) ان الخليل سأل الاصمعى عن الخبيت فى هذا البيت فقال يريد الخبيث وهى لغة خيبر ويروى لغة قريظة فقال له الخليل:

الرجوع الى موضوع الرزق

ليس يعطى القوى فضلا من الرز
ق ولا يحرم الضعيف الشخيت
بل لكل من رزقه ماقضى الا
ه وان حزّ أنفه المُستَميتُ[٢]

و يظهر ان الأب الفاضل لم يقنع بزعمه فأضاف اليــه قوله « ولعل فصــل الخطاب فى هذا ما يقال من أن السموءل كان من احدى تلك الشيع الجامعة بين عادات اليهود وعقائد النصرانية التى اعبرت الاردن وقت حصار الروم لاورشليم فسكنت فى بلاد العرب [١]

و يظهر من كلامه هذا انه غير عالم بتاريخ اليهود فى صدر النصرانية فان مما لا جدال فيه انه وجدت طائفة يهودية نصرانية فى بادى أمرها فى الحين الذى كانت فيــه النصرانية دعوة يهودية بحتة وكان النصارى شيعة من شيع اليهود وقد فنيت هذه الفئة بعد ان أخذت النصرانية تنتشر بين اليونان والسريان ولم يبق للطائفة اليهودية النصرانية (secte judéo- chrétienne) ذكر فى القرن الثالث ب.م. وليس لنا مراجع تاريخية تثبت وجود طائفة يهودية نصرانية منفردة فى الجزيرة العربية . . . . وعلى العموم فان ديوان السموءل لنفطويه مجموعة من الشعر المليح والقبيح والسمين والغث أنتجته قرائح مختلفة فمن شاعر متين الى آخر سخيف ومن شاعر مطبوع الى آخر متكلف وأغلبها مزور مدسوس على السموءل

أما القصيدة اللامية التى أولها :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فــكل رداء يرتديه جميــل

لو كان ذلك لغتهم لقال الكثير وانما كان ينبغى ان تقول انهم يقلبون الثاء تاء فى بعض الحروف ...

(١) ديوان السموءل لنفطويه طبع الاب شيخو ص ١٣

(٢) ديوان السموءل لنفطويه طبع الاب شيخو ص ٥

والتى يقول عنها صاحب كتاب الطراز انها تشتمل على مكارم الاخلاق من سماحة وشجاعة وتواضع وحلم وصبر وتكلف واحتمال للمكاره . . . [١] هذه اللامية التى خلدت اسم السموءل ذهبت فيها آراء الادباء مذاهب شتى حتى ان الاغانى يقف ازاءها موقف الحائر المضطرب فيقرر طورا انها لشريح بن السموءل [٢] و يقول مرة أخرى انها للسموءل نفسه و ينسبها فى موضع ثالث لشاعر غير معروف اسمه دكين العذرى (ا) [٣]

ولا شك ان اختلاف أقوال الاغانى ناشىء من تعدد الروايات التى كانت أمامه وكذلك اختلف الرواة فى نقل القصيدة اختلافا كبيرا فمنهم من يقدم بعض أبياتها على بعض ومنهم من يعكس عمل الآخر ومنهم من يزيد فيها ومن ينقص [٤] فهذه الاختلافات فى نسب مؤلف القصيدة وهذه التصرفات المتباينة فى ترتيب أبياتها تنتج حتما الريبة فى نفس الباحث فى صحة نسبتها للسموءل

والذى يقرأ القصيدة الفريدة المنسوبة للسموءل فى كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى [٥] الذى يعتبر ثقة فى جمعه شعر الجاهلية نظراً لقدمه وسلامة ذوقه ودقة نقده يأخذه العجب حين لا يجد للسموءل إلا أبياتاً قليلة مع عدم تنبيه ابن سلام على وجود أبيات أخرى للسموءل

وقد جاء ابن سلام بقصيدة لشعبة بن غريض [٦] بينما نسب ابن نباته فى شرحه لرسالة ابن زيدون [٧] نفس هذه القصيدة للسموءل وهى القصيدة التى مطلعها

---

(١) راجع ديوان السموءل ص ٢٥
(٢) الاغانى جزء ٦ ص ٦٧
(٣) الاغانى جزء ٨ ص ١٥٥
(٤) ديوان السموءل ص ٢٥ — ٢٧
(٥) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى طبع مصر شعراء اليهود ص ١٠٩ — ١١٤
(٦) طبقات الشعراء ص ١١١
(٧) شرح ابن نباته لرسالة ابن زيدون طبع مصر ص ٥٤

يا ليت شعري حين أندب هالكاً ماذا تُرَيثنى به أنواحى . . . .

وللسموءل أبيات لا يشك فى صحتها القدماء

وفيت بأدرع الكندى إنى اذا ما ذم أقوام وفيت

وأوحى عاديا يوماً بأن لا تهدم يا سموءل ما بنيت

بنى لى عاديا حصناً حصيناً و بئراً كلما شئت استقيت(١)

والذى قيل فى شعر السموءل يمكن أن يعتبر مقياساً صالحاً للبحث فى شعر بقية يهود الجاهلية إذ لا يمكننا بوجه من الوجوه أن نقول قولاً فصلا بأنها وصلت الينا عن يهود الجاهلية

والشخصية البارزة بعد السموءل هى شخصية كعب بن الاشرف وكان من أصحاب النفوذ والبطش بالسيف واللسان لا على اليهود فحسب بل على قريش أيضاً وقد كان عربياً أكثر منه يهودياً إذ كان أبوه من عرب طى وأمه من بنى النضير وقد توفى أبوه وهو صغير فحملته أمه الى أخواله فنشأ فيهم وساد وكبر أمره وكان شاعراً فارساً وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره فى الحروب التى كانت بين الأوس والخزرج وكان شاعراً فحلا وخطيباً فصيحاً وكان يهجو النبى و يهجو أصحابه فبعث النبى نفراً من أصحابه فقتلوه فى داره(٢)

وأما الابيات التى ينسبها ابن سلام الجمحى لكعب بن الاشرف والتى تشتمل على وصف دقيق لدار وصفها وصفاً صادقاً موجزاً فانها تشهد لشاعرها بأنه كان مبدعاً فى أسلوبه معجباً بالمناظر الطبيعية وهذه هى الأبيات

رُبَّ خالٍ لِىَ لو أبصَرْته سبط المِشْية أبَّاء أَنِف

لين الجانب فى أقرَبِه وعلى الاعداء سم كالزعف

ولنا بئر رواء جمة من يَرِدْها باناء يغترف

---

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٩

(٢) الاغانى ج ١٩ ص ١٠٦

ونخيل في قلاع جمّة تمزج التمر كأمثال الاكف
وحرير في محال خلّة آخر الليل أهازيج بدف (١)

وقد نسب اليه ابن هشام قصيدة في رثاء قتلى يوم بدر من سراة وعظماء مكة

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل الأدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصرّع (٢)

ومع أنها تلائم الحالة السياسية التي كان عليها كعب بن الاشرف و بقية قريش بعد يوم بدر ويحتمل أن قائلها كان كعب بن الاشرف فلنا الحق أيضاً أن نشك في صحتها إذ لا يمكن على الاطلاق الاعتماد على كل ما سرد في كتاب السيرة فكثيراً ما نعثر فيه على قصائد طويلة ينسبها ابن هشام لبطون حمير في حين تدل لغتها على أن قائلها من قريش فكيف يمكننا أن نثق بنسبته هذه القصيدة الى كعب بن الاشرف ... على أن الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار يقول إن وجود شعر منسوب الى حميريين أو قحطانيين بلغة مضر لا يقتضي أن يكون مورده في السيرة قد نحله غير قائله وحمله عليه كذباً وإن كان المنسوب اليه جاهلياً

ذلك أن اللغة المضرية قد اقتحمت على لغات أهل اليمن مواطنها وتغلغلت في أحشائها وآية ذلك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد وفدت عليه وفود قبائل اليمن القاصية والدانية ولم يكونوا يحتاجون في مخاطبتهم لرسول الله وحوارهم له ولأصحابه الى ترجمان يعبر عما يجول بخواطر الفريقين من المعاني التي يريد كل فريق أن يلقيها الى الآخر . وهذا عليّ عليه السلام ومعاذ رضي الله عنه أرسلهما رسول الله الى اليمن ولم يحتاجا الى مترجم يترجم لكل منهما كلام من أرسلوا

(١) طبقات الشعراء ص ١١٠
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٨

اليهم . وهذا كما قلت دليل على أن المضرية قد سادت لغات العرب قبل الاسلام وصارت من القوم بحيث لا يستكثر مستكثر أن يقول بها الحميرى أو القحطانى شعره الذى يريد أن يذيعه بين العرب . . . اه

ثم إن هناك اسما آخر يلفت عنايتنا وهو سارة القريظية التى ينسب اليها شعر فى رثاء قومها بعد أن قتل أبو جبيلة أشراف اليهود حيث تقول

بنفسى أمة لم تغن شيئاً ... بذى حُرُض تُعَفّيها الرياح
كهول من قريظة أتلفَتْها ... سيوف الخزرجية والرماح
رزئنا والرزية ذات ثقل ... يمر لأهلها الماء القَراح
ولو أربُوا بأمرهم لجالت ... هنالك دونهم جأْوَى رَدَاحُ (١)

ولو صحت هذه الرواية لكان من الممكن أن نستدل بها على أن المرأة اليهودية كانت تشترك اشتراكاً فعليا فى جلب الرزق لأسرتها من ناحية وفى نمو القوى العقلية من ناحية أخرى

وليس ذلك بغريب على الفتاة الاسرائيلية بوجه عام فى جميع أدوار تاريخ أمتها إذ قد ظهر من الجنس اللطيف اليهودى النابغات والشاعرات والبطلات والملكات

---

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٦

الباب الثاني

ظهور اليهودية في بلاد اليمن

اسباب انتشار اليهودية في بلاد اليمن — اضطراب أقوال المؤرخين في هذا الباب — العوامل الدينية والسياسية لظهور اليهودية في بلاد اليمن — مطامع الدول الرومانية الشرقية في بلاد اليمن — لماذا انتشرت اليهودية في بلاد اليمن ؟ — وقت ظهور اليهودية في اليمن — آراء المستشرقين — رأى المؤلف — أقوال مؤرخي العرب في ملوك حمير اليهود — أسباب اعتناقهم اليهودية — رأى ابن هشام والطبرى — أول ملوك حمير اليهود — يوسف ذو نواس — حياته كما ذكرها ابن هشام — اضطهاده أهل نجران — أسباب ذلك الاضطهاد — ذكر القرآن الكريم لقتلى نجران — استنجاد أهل نجران بالروم — اغارة الحبشة على اليمن — تحقيق الحبشة مطامع الدولة الرومانية الشرقية في بلاد العرب — عام الفيل — تأثير هزيمة الدولة الحميرية في نفوس اليهود

بعد أن بينا الأسباب التي أدت الى انتشار الديانة اليهودية في شمال بلاد الحجاز نريد أن نوضح العوامل الاخرى التي دعت الى ظهور الدين اليهودى في بلاد اليمن

لم تعتمد الديانة اليهودية في بلاد اليمن على العصبية اليهودية كما كان شأنها في البلاد الحجازية لان الاغلبية المطلقة التي كونت أنصار هذا الدين الجديد في اليمن كانت من سكان البلاد الاصليين

وقد اضطربت أقوال المؤرخين في أسباب ظهور الديانة اليهودية في ربوع بني حمير فطائفة منهم ترى أن ظهورها كان نتيجة لنضال عنيف وقع بين اليهودية والنصرانية تمكنت فيه الاولى من أن تتغلب على الاخرى في بادئ الامر ومن

هذه الطائفة العلماء (Graetz Wellhausen Halevy)

وطائفة أخرى تعترف بأن للعامل الدينى أثراً ظاهراً ولكنها ترجح أن الباعث الاصلى انما هو سياسى قبل كل شيء ومن هذه الطائفة العالمان (Glaser Winkler) وهذا الباعث الاصلى الذى تراه الطائفة الاخيرة هو أن ملوك الدولة الرومانيـة الشرقية بعد ان فرغوا من أمر الأقاليم المجاورة للجزيرة العربية تأهبوا لضم أطرافها الى أملاكهم فسلكوا لتنفيذ هـذا الغرض طريقة سياسية محكمة حيث أرسلوا وفودا من الرهبان الى تلك البلاد وأمروهم أن يبثوا التعاليم المسيحية بين أهل الحضر والبادية من جهة ويمهدوا الافكار والنفوس لقبول التسلط السياسى الرومانى من جهة أخرى فلما تنبه ملوك حمير لهذه الحيل وأدركوا ما يتعرض له كيانهم السياسى من الخطر الشديد بسببها نشطوا لاحباطها وفكروا فى أمضى الاسلحة التى تمكنهم من القضاء عليها فهداهم فكرهم الى أن يعتنقوا الديانة اليهودية ليقاوموا دينا توحيديا بدين توحيدى آخر

وقد أصاب ملوك حمير فى هذه الفكرة كل الاصابة لان اعتنـاقهم لليهودية قضى على كل الحجج التى كان ملوك الدولة الرومانية الشرقيـة يعتمدون عليها فى الترويج لدعوتهم السياسـية وانقطعت الوسائل التى كانوا يتوسلون بها للتأثير فى عقول أفراد الشعب وجماعاته

على أن هناك عاملين آخرين لظهور الديانة اليهودية فى بلاد اليمن لم يصرح بها المؤرخون :

الاول : أن ملوك حمير لم يخشوا على أنفسهم من اعتناق اليهودية أن تتسلط عليهم دولة ذات سلطان كبير ونفوذ واسع ولم يكن لليهودية فى ذلك العصر دولة سياسية فى حين أن النصرانية كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة فى فتح بلادهم

ومن هنا نفهم السر فى مقاومة الرهبان واضطهاد أهل نجران والنفور من

الحبشيين لانهم جميعاً كانوا آلة فى أيدى السادة من ملوك قسطنطينية

الثانى : — وله أثر كبير فى انتشار اليهودية فى بلاد اليمن — وهو أن تعاليم الديانة اليهودية ومبادئها أقرب الى عقلية العرب من الديانة المسيحية التى كانت تستمد يومئذ بعض تعاليمها من الفلسفة اليونانية

ومع أنه كان هناك فى شمال الجزيرة قبائل عربية اعتنقت الديانة المسيحية فانى اعتقد ان النصرانيـة كما كان اليونان وغيرهم يفهمونها لم تتغلب فى وقت ما على النفوس العربية بدليل ان البطون العربية المسيحية دخلت فى الدين الاسلامى بعد اتصالها بجيوش الخلفاء الراشدين بلا كبير مقاومة فى حين كان اليهود فى شمال الجزيرة وجنوبهـا يدافعون عن الديانة اليهودية دفاعاً شريفاً . فيقاتلون جيوش الحبشة فى اليمن قتالا شديدا رغم ما كانت عليـه هذه الجيوش من قوة البأس وكثرة العدد اللتين بواسطتهما فقط استطاعت أن تظهر على اليهود وان تفرقهم وتمزقهم

كذلك لم يُلَبِّ اليهود دعوة رسول الاسلام ولا ينقص من قيمة هذه الحقيقة ان أفراداً من اليهود دخلوا فى ملة النبى محمد وولايته

ويؤيد هذه الحقيـقة ما جاء فى البخارى حيث قل : لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بى اليهود (١)

وتاريخ ظهور اليهودية فى بلاد حمير موضع جدل عنيف بين علماء الأفرنج حتى الآن

فيقرر المستشرق (Prococke) وهو من علماء القرن الثامن عشر ان دولة حمير اليهودية ظهرت فى القرن الاول ق . م

ولكن العلماء يعارضون فى هذا الرأى ويقولون انه لو صح هذا الحدس لكان

---

(١) البخارى جزء ٢ ص ٥١

يوسف المؤرخ اليهودى قد تكلم عن هـذه الدولة اليهودية كما ذكر ظهور دولة آرامية متهودة على أطراف نهر الفرات النائية عن فلسطين وهى دولة حُدَيب [١]

ويقرر العالم (Silvester de Sacy) فى كتابه[٢] ان ظهور اليهودية فى اليمن لم يسبق القرن الثانى ب . م . ولكن المؤرخ اليهودى شيفر ينكر صحة هذا الرأى ويقول لو وجدت هناك دولة يهودية فى القرن الثانى بعد الميلاد لكان التلمود يملأ صحائف غير قليلة بذكر أخبارها وسرد الأساطير عنها فسكوت التلمود عن هذه الظاهرة التاريخية أعظم دليل على عدم وجودها فى قرون تأليفه[٣] (ختام التلمود فى القرن الرابع بعد الميلاد)

ثم ظهرت فى المجلة الاسيوية الفرنسية [٤] مقالة قيمة ناقض فيها العالم برون (Perron) جميع نظريات من ذكرنا ويقول ان دولة حمير اليهودية لم تظهر إلا فى القرن الخامس بعد الميلاد ويستدل بما ذكره الطبرى فى هذا الشأن ويقول ان أحيحة الذى قاتل تُبان أسعد أبى كرب ملك حمير وصاحب الدعوة اليهودية طلق زوجه سلمة فذهبت الى مكة حيث تزوجت من هاشم أبى عبد المطلب جد النبى محمد وهذا يدل على ان مقاتلة تبّان أسعد لاهالى يثرب انما كانت حوالى نهاية القرن الخامس ب . م .

ثم ما ذكره الطبرى من أنه كان لتبان أسعد بنون ثلاثة حسن وعمرو وذُرْعة ، وذرعة هذا على حسب رواية ابن هشام هو ذو نواس آخر ملوك حمير

---

(١) שמחוני ج ٢ ص ١٩٢

(٢) Memoires sur divers evenement de l'histoire des Arabes avant Mahomet.

(٣) Craetz ج ٣ ص ٤٠٥

(٤) Journal asiatique 1838 Novembre p 358 (Sur l'introduction de judaisme au Yemen.)

واذن لا يمكن بوجه من الوجوه أن تكون هذه الدولة قد عاشت قبل القرن الخامس ب . م .

لا شك أن حجة بيرون (Perron) أمتن وأصح من نظريات غيره ممن ذكرناهم بيد أن هذه الحجة لا تنتج الجزم القاطع لانها مبنية على أقوال ليست محل ثقة تامة لان هناك شكا فى بعض الحوادث التاريخية التى ذكرناها

أما أنا فأرجح ان ظهور اليهودية فى بلاد اليمن قد حدث قبل تُبّان أسعد اذ من الصعب أن نقتنع بأن قيلا واحداً يستطيع أن يرغم أقيال حمير على اعتناق دين جديد دون أن يحدث ذلك فتنا داخلية وان عدم وجود معارضة للدين اليهودى ليدل على أنه كان هناك اناس من ذوى النفوذ السياسى سمحوا للديانة اليهودية التوحيدية أن تتسرب الى اليمن وتركوها تنتشر شيئاً فشيئاً أو ساعدوا على انتشارها بين الشعب من قبل أن يعلن تُبّان أسعد انها صارت دين البلاد

على ان المعقول أن يكون اليهود قد وجدوا فى تلك الارجاء منذ أزمان بعيدة اذ لا يمكن أن يكون اليهود انتشروا فى بلاد الحجاز فى حين لا يكون منهم أحد فى بلاد اليمن لا سيما وعدد كبير من اليهود تجار دأبهم التنقل والارتحال لتبادل البضائع فى مختلف البلدان فلا بد أن تكون هناك جموع يهودية قد وصلت الى ثغور اليمن وحضرموت ثم توغلت الى الداخل شيئاً فشيئاً

ويقول الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار إن علاقة اليهود باليمن قديمة جدا يرجع تاريخها الى أيام ملك سليمان بن داود فقد جاء فى سفر الملوك الاول فى الاصحاح العاشر آية (١) ما نصه (وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل . فأتت الى أورشليم بموكب عظيم وكلمته بكامل ما فى قلبها الى آخر ذلك الاصحاح — والاصحاح التاسع من أخبار الايام الثانى من آية (١) الى آية (١٢) مثل عبارة أخبار الملوك الاول تكاد تكون احداها منقولة من الاخرى وكلاها فى وصف سليمان وحكمته واندهاش ملكة سبأ منه وتقديمها اليه الهدايا

والتحف التى أتت بهـا من بلادها وثنائهـا على سليمان وإله سليمان ثم عودتهـا الى بلادها — وقد وردت قصة سليمان مع ملكة سبأ فى سورة النمل وهى السورة السابعة والعشرون من القرآن من أول الآية العشرين الى آخر الآية الرابعة والاربعين ومما جاء فيها حكاية قول الملكة لقومها عن كتاب سليمان « قالت يا أيهـا الملأ إنى ألقى الىّ كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين . قالت يا أيهـا الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » ومنها (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبل وكنا مسلمين) ومنها (قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)

وأخبرنى السيد محمد بن عقيل من سادات المكلاة انه قرأ فى تاريخ الجندى من نحو خمسين سنة أن اليهود حين غلب الحبشان على اليمن رحلوا الى حضرموت وكان مقامهم بتلك النواحى الى خروج الحبشان من اليمن — اه . . .

وقد أثبت العالم جلازر (Glaser) وجود اليهود فى اليمن وحضرموت منذ عصور كثيرة قبل ظهور الاسلام واذن فهؤلاء اليهود هم الذين أنبتوا النبات فى النفوس وتعهدوه حتى ترعرع ثم تأصلت جذوره وظهر الميل عند قبيل أو عدة أقيال لاعتناق اليهودية كما اعتنقت بطون عربية الديانة المسيحية بسبب نفوذ الرهبان وانتشار الدعوة اليهـا تدريجاً وقد كانت هناك جموع من العرب المتهودة وهى بطون كنانة و بنى الحارث بن كعب و بنى كندة سكنوا جميعاً بجوار مكة (١)

(١) Wüslenfeld ص ٢٠٩ عن ابن قتيبة ج ٣ ص ٤٠٨ Graetz

وقد يكون فى حكم الممكن انه بعد ان قفل تبان أسعد راجعاً من يثرب جمع الاقيال المتهودة وكون فيها دولة حميرية يهودية لصد هجوم الدولة الحبشية وسد السبيل فى وجه مطامعها ولمنع انتشار النصرانية التى كان ملوك الروم يتوسلون بها الى تنفيذ مطامعهم الاستعمارية

* * *

أما مؤرخو العرب فيأتون بقصة طويلة تشير الى سبب جدير بالاعتبار لظهور الدولة اليهودية فى اليمن

يقول الطبرى كان تبان أسعد حين أقبل من المشرق جعل طريقه على المدينة وقد كان حين مرّ بها فى بَدْأته خلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع على تخريبها واستئصال شأفة أهلها وقطع نخلها غير أن سكان المدينة كانوا يقاتلونه بالنهار و يقرونه بالليل فأعجبه ذلك منهم فبينما هو على ذلك من حربه لهم اذ جاءه حبْرَان من أحبار اليهود من بنى قريظة عالمان راسخان حين سمعا ما يريد من اهلاك المدينة وأهلها فقالا له أيها الملك لا تفعل فانك ان أبيت الا ما تريد حيل بينك و بينهم ولم نأمن عليك عاجل العقوبة لان يثرب مهاجر نبى يخرج من هذه البلدة من قريش فى آخر الزمان فتناهى عند ذلك الذى سمع من قولهما عما كان يريد بالمدينة ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة وخرج بهما الى اليمن واتبعهما على دينهما . . . (١)

وكذلك يروى هذه القصة صاحب السيرة النبوية وغيره من بقية مؤرخى العرب دون أن يزيدوا شيئاً

بعد ذلك يقول الطبرى : لما توجه تبان أسعد الى اليمن مع جنوده حالت حمير بينه و بين دخوله الى بلاده وقالوا لا تدخلها وقد فارقت ديننا فدعاهم الى دينه وقال انه دين خير من دينكم قالوا فحا كمنا الى النار فوافق الملك وكانت باليمن

---

(١) نقل بتصرف من كتاب الامم والملوك للطبرى جزء ٢ ص ٢٥

نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ولما قالوا ذلك لتبان قال أنصفتم فخرج قومهم بأوثانهم وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما متقلديها حتى قصدوا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه فخرجت اليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فذمّرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر فصبروا حتى غشيتهم وأكلت الأوثان وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما حتى جباههما لم تضرهما فأصفقت حمير عند ذلك وعند ذلك كان أصل اليهودية باليمن . . . .(١)

ولكنى أميل الى انكار صحة هذه القصة بغض الطرف عن أنها خرافة لان الامم لا تبدل أديانها كما تبدل الافراد ثيابها بل أن التغييرات السياسية والدينية انما تحصل اما بتغيير بطىء وانقلاب عقلى متدرج فى برهة طويلة مستمرة واما بالثورة العنيفة تهدم القديم مرة واحدة وتبنى الجديد مرة واحدة أيضاً . . . .

والذى نعلمه عن حسن بن تبان أسعد أبى كرب هو أنه سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم حتى اذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير المسير معه وأرادوا الرجعة الى بلادهم فكلموا أخاً له يقال له عمرو وكان معه فى جيشه فقال له اقتل أخاك حسن ونملكك علينا وترجع بنا الى بلادنا فأجابهم فاجتمعوا على ذلك الا ذا رعين الحميرى فانه نهاه عن ذلك فلم يقبل منه فقال ذو رعين

ألا من يشترى سهراً بنوم سعيد من يبيت قرير عين
فأما حمير غدرت وخانت فمعذرة الالَه لذى رُعَين

ثم كتبها فى رقعة وختم عليها ثم أتى بها عمرا فقال له ضع لى هذا الكتاب عندك فقبل ثم قتل عمرو أخاه حسن ورجع من معه الى اليمن فلما نزل عمرو بن تبان اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فلما أجهده ذلك سأل الأطباء والحزاء

(١) الطبرى ص ٩٦ ج ٢

من الكهان والعرافين عما به فقال له قائل منهم انه والله ما قتل رجل قط أخاه بغيا على مثل ما قتلت أخاك عليه الا ذهب نومه وسلط عليه السهر فلما قيل له ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه حسن من اشراف اليمن حتى خلص الى ذى رعين فقال له ذو رعين ان لى عندك براءة فقال وما هى قال الكتاب الذى دفعت اليك فأخرجه فاذا فيه البيتان فتركه وهلك عمرو . . . فمرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة يقال له لَخْنيعة يَنوف فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة الى أن تغلب عليه زُرْعه ذو نواس ابن تبان أسعد أخى حسن وكان صبيا حين قتل حسن ثم شب غلاماً جميلا ذا هيئة وعقل(١)

ويمكننا أن نستنتج من هذه الحوادث أن الوهن والضعف تغلبا على الدولة بعد موت تبان أسعد أبى كرب وأن موجبات الكراهية والتحاسد والتنافس قد فشت بين أفراد الأسرة المالكة فانفسح المجال أمام رواد الفتن ومحبى الاضطراب فلعبوا دورهم باتقان ونجاح

ولا نعلم مبلغ تأثير هذه الفتن والاضطرابات على دين الدولة ولاماذا كانت ثورة لخنيعة ينوف متجهة الى الأسرة الحاكمة فقط أو كانت الفكرة متجهة أيضاً الى هدم كيان اليهودية فى اليمن فان جميع المصادر العربية لم تشر أقل اشارة الى شىء من هذا

ولكننا مع ذلك نميل الى ترجيح أن يكون الثوار قد رموا بثورتهم أيضاً الى هدم اليهودية إذ لا بد من آلة يستعملونها للتأثير فى نفوس الشعب وتهييج عواطفه وخير وسيلة لذلك إنما هى أن يظهروا بمظهر المدافعين عن عقيدة الآباء والاجداد ودين البلاد الاصلى لا سيما وقد كان كثيرون من الاقيال لم يستبدلوا بعد الديانة الوثنية بغيرها

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٢٨

ومن المحتمل أن الثائرين كانوا يستمدون قواهم وأموالهم من الخارج ويرجح هذا الاحتمال ما جاء فى بعض المراجع اليونانية من أن ثورة وثنية ثارت ضد ذى نواس كما سنوضح ذلك فيما بعد

وقد جاء فى المصادر اليونانية كثير من الأخبار عن ذى نواس هـذا كما جاء منها الكثير أيضاً فى المراجع العربية

يعتقد العالم Perceval أن ذا نواس حكم بلاده من سنة ٤٩٠ — ٥٢٥ ب . م فى حين يقول شيفر إن ذا نواس ارتقى العرش سنة ٥٢٠ — ٥٣٠ ب . م (١)

ويتضح لمن يبحث فى ترجمة حياته أنه لم يكن أول ملك يهودى بدليل أن تربيته كانت يهودية محضة وأنه كان فى عقليته وميوله يهودياً متعصباً لدينه مما يحمل على الاعتقاد بأنه قد لقن أساس الديانة الاسرائيلية من نعومة أظفاره

بذل علماء البحث والتنقيب جهوداً كثيرة فى سبيل العثور على شىء من آثار الدولة الحميرية المتهودة ولكنهم لم يعثروا على شىء منها مطلقاً

وهذا يدل على أحد أمرين

(١) أن هـذه الدولة لم تجد من الوقت ما يكفى لانشاء الأعمال العظيمة والآثار الخالدة التى ترشد الخلف وتدل الاجيال المقبلة على ما كان لها من قوة بأس وعظم سلطان

(٢) أن الضغط الحبشى الذى قضى على دولة حمير المتهودة محا كل ما كان له علاقة باليهود وقضى على جميع آثار دولتهم لأن النزاع الذى كان بين الحبشة ودولة حمير المتهودة لم يكن نزاعاً سياسياً فقط بل كان نزاعاً سياسياً ودينياً فى آن واحد ونحن نعلم أن الحروب الدينية أشد هولاً من السياسية وفيها يبذل المنتصرون كل مرتخص وغال فى سبيل استئصال شأفة الدين المغلوب ومحو آثاره

ويحدثنا ابن هشام عن حياة ذى نواس بقوله : وتسمى ذو نواس يوسف فأقام

(١) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٨

فى ملكه زمناً . و بنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم وهم أهل فضل واستقامة فسار اليهم ذو نواس بجنوده ودعاهم الى اليهودية نخيرهم بين ذلك والقتل فاختاروا القتل نخد لهم الاخدود فحرق من حرق بالنار وقتل بالسيف من قتل ومثل بهم حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً . . . . [١]

والذى يعلم أن نجران لم تكن سوى بلدة صغيرة يَنْدهش لهذه المبالغة فى عدد القتلى إذ لم يكن عدد سكانها يزيد عن بضع مئات وفضلا عن ذلك فان ذا نواس لم يقتل كل أهالى نجران بدليل أن لهم ذكراً فى أخبار صدر الاسلام[٢] و إذن فليس من شك فى أن عدد القتلى من نصارى نجران لم يدرك عشرين ألفاً بوجه من الوجوه فهى مبالغة ظاهرة سببها أن اضطهاد ذى نواس للنصارى كان عنيفاً جداً حتى أنه ترك آثارا هاجت النفوس العربية فى البادية والحاضرة

وقد خلد القرآن الكريم ذكرى قتلى نجران بآيات من ذهب : قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نَقَمُوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . . . [٣]

أما المصادر اليونانية فتقول إن معاملة ذى نواس لنصارى نجران لم تكن إلا رد فعل لاضطهاد الدولة الرومانية لليهود حيث كانت تذيقهم الأمرين بواسطة عمالها فى كل بلادها باسم الدين[٤]

بعد تلك الاضطهادات التى أصابت نصارى نجران حدث : أن أفلت منهم رجل من سبأ يقال له دوس ذو ثعلبان على فرس له فسلك الرمل فأعجزهم فمضى على وجهه حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذى نواس وجنوده وأخبره

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٣٤
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٦٥
(٣) سورة البروج ٤ — ٨
(٤) Graetz جزء ٢ ص ٨٨

بما بلغ منهم فقال له بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك الى ملك الحبشة فانه على هذا الدين وهو أقرب الى بلادك وكتب اليه يأمره بنصره والطلب بثأره فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلاً يقال له ارياط ومعه فى جنده ابرهة الاشرم فركب ارياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعلبان وسار اليه ذو نواس فى حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن فلما التقى الجمعان انهزم ذو نواس وأصحابه ... ولم يستطيعوا الثبات أمام جيش النجاشي فاتجه ذو نواس نحو البحر وضرب فرسه فخاض به ضحضاحه حتى أفضى به الى غمره . . . (١)

على أن المؤرخ اليونانى يوحنا من مدينة افزوس يقص خبراً لم تقصه المراجع العربية وهو أن دومينوس الحميرى قبض على تجار من نصارى الروم وقتلهم واستمر يُعامل تجار الروم بالقسوة والعنف و يضطهدوهم اضطهاداً شديداً كلما مر منهم أحد ببلاد اليمن حتى انقطع جميع التجار المسيحيين من دخول بلاد اليمن فأصيبت الأسواق التجارية اليمنية بالكساد وضعفت فيها الحركة ضعفاً شديداً لأن هذه الأسواق كانت تستمد حياتها الاقتصادية مما تصدره الى الخارج من الحاصلات الزراعية والمنتجات الصناعية ومما يرد اليها من حاصلات البلاد الأخرى وكانت ثغور بلاد اليمن هى الواسطة بين الهند و بين جميع الاصقاع الشرقية والغربية فكانت أسواقها لذلك شديدة الحركة كثيرة المعروضات وملتقى تجار كل هذه الجهات

لم يكن من الممكن أن ينظر اليمنيون الى شل حركة أسواقهم بعين الرضى لذلك تقدم ايدوج قيل من أقيال اليمن الوثنيين الى ذى نواس وقال له ان أعمالك القاسية ستؤدى الى نقل الحركة التجارية من ثغورنا الى ثغور أعدائنا فأجابه ذو نواس بقوله إن اخوانى اليهود فى بلاد الروم يذوقون ألواناً شتى من الأهوال

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٢٩ — ٣٧ نقل بتصرف

والتعذيب فأنا أريد أن أكف أيدى الروم عن اقتراف الاثم بالابرار بمعاملتى لتجارهم هذه المعاملة السيئة . . .

ولم يرتض ايدوج هذا الجواب ولم يوافق على هـذه السياسة التى يرى أنها ستؤدى الى خراب البلاد ففكر فى أن يتخلص من ذى نواس فاتفق مع باقى أقيال اليمن الوثنيين وجمع بواسطتهم جموعاً كثيرة قاتل بها ذا نواس حتى تغلب عليه وقتله ثم اعتنق ايدوج الديانة النصرانية ....(١)

هذه هى رواية المؤرخ اليونانى يوحنا وهى تخالف ما نقلنا عن المصادر العربية من أن جيوش الحبشة هى التى قضت على دولة ذى نواس

ونحن نرجح ما روته المراجع العربية لأن انكار غزو الحبشة لليمن غير ممكن مطلقاً نظراً لأنه قد يؤدى الى انكار حوادث هامة أخرى حدثت فى بلاد اليمن والحجاز بعد ذلك بزمن قليل

على أن لدينا شهادة لقائد من قواد الجيش الرومانى الشرقى الذى كان يحارب فى العراق ضد الجيش الفارسى أثناء وقوع حوادث اليمن هذه وهو يقصها بأسلوب لا يتعارض مع ما جاء فى كتاب السيرة لابن هشام ويعرف هـذا القائد باسم (Prokop) بروكوب وهـذه هى شهادته : . . . وقد استعد ملك الحبشة (Hilistiaus) الذى كان يغالى فى دينه لمحاربة ذى نواس لأنه كان يأخذ الأموال من تجار النصارى بغيا ثم جاء بجيش عظيم الى باب المندب وشن الغارة على سواحل بلاد حمير فسار ذو نواس اليه ولـكنه انهزم هزيمة منكرة وهلك (٢)

ولست أميل الى الرأى القائل بان رواية المؤرخ يوحنا من مدينة افزوس مختلقة بل أفترض أنها حدثت أثناء الاضطرابات الداخلية التى حدثت بعد قتل

---

(١) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٨ — ٤٠٩

(٢) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٩

To: www.al-mostafa.com

حسن بن تبان أسعد أبى كرب اذ قد يحتمل أن لَخْنيعة ينوف الوثنى أو غيره طمع فى عرش دولة حمير وحارب ملكا من ملوكها وقتله وحكم البلاد بعده برهة الى أن ثار أحد أفراد الأسرة التى كانت مالكة للملك المقتول وأعاد النظام الى نصابه وأخذت المياه تجرى فى مجراها

وهذا الفرض لو رجحت صحته يؤيد بقية ما أشرنا اليه من اضطراب حبل الأمن بعد ان قتل حسن بن تبان أسعد

ومهما يكن من شىء فقد كللت مساعى الحبشة وجهودها ضد الدولة الحميرية المتهودة بالنجاح وتم لها القضاء على هذه الدولة قضاء نهائيا

وقد اشترك يوسطين اشتراكا فعليا فى فتح اليمن لانه أرسل أسطول مصر البحرى مشحونا بالمؤن والأسلحة الى الثغور اليمنية ويرجح بعض مؤرخى الافرنج أن جيوش يوسطين كانت معتزمة أن تحتل اليمن بعد أن فتحتها الحبشة ولكن قوات الفرس أقلقت راحتها على حدود سورية فمنعتها من ذلك(١)

بعد ان خَضَدَت الحبشة شوكة الدولة الحميرية اليهودية فى بلاد اليمن اتجهت نحو الوثنية تريد هدمها وكان من مجهوداتها فى هذا السبيل بناء أبرهة لكنيسة القليس المشهورة فى صنعاء ليصرف اليها حج العرب(٢)

غير أن النسأة وهم رؤساء الديانة الوثنية قاوموا فكرته ووقفوا سدا فى سبيل تحقيق غرضه فصمم أبرهة على تنفيذ فكرته بالقوة وخرج بجيش كبير الى مكة يريد هدم الكعبة وابطال عقائدها غير انه لم يوفق أيضاً لان جيشه انكسر انكسارا شنيعاً فعاد منهزما الى اليمن كما يحدثنا ابن هشام بأخبار هذه الحملة المعروفة بعام الفيل(٣)

---

(١) Graetz جزء ٣ ص ٨٨
(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٤٣
(٣) ابن هشام جزء ١ ص ٤٧ — ٥٤

وقد أشار القرآن الى هذه الواقعة فى سورة الفيل حيث يقول « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول »

وقد كان لانكسار الدولة الحميرية أمام الحبشة رنة أسى شديدة فى قلوب اليهود فظهرت مع الزمن أقاصيص كثيرة وأساطير خرافية عن ابطال حمير ، فمن ذلك ما قيل ان أصل هؤلاء من بقايا أسباط بنى اسرائيل البائدة وان هذه الجيوش لم تغلب على أمرها بل رجعت على أعقابها الى داخل البلاد الرملية وانها كونت فى تلك الارجاء دولة عظيمة يظهر بطشها فى اليوم الذى يتاح لها فيه النضال و يؤذن لها بخوض المعارك

وقد كانت هذه الاقاصيص سببا فى أن شرع جماعة من اليهود فى القرون الوسطى يرسلون الى بلاد العرب ليبحثوا عن تلك الجيوش التى توارت عن العيون . . . .

الباب الثالث

بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود

بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود — تأثير انكسار الدولة الحميرية فى حياة اليهود ببلاد العرب — تحرش الدولة الرومانية الشرقية باليهود فى بلاد العرب — هجرة بطون الاوس والخزرج الى جهات يثرب - اضطراب أقوال مؤرخى العرب فى زمن هذه الهجرة — نص ابن هشام — رأى صاحب الاغانى — رأى الاستاذ الخضرى بك — سيل العرم وزمن حدوثه — آراء المستشرقين فيه — نتيجة ابحاث العالم جلارز فى هذا الموضوع — سوء حال الاوس والخزرج — أوائل هجرتهم — وصف السمهودى لليهود وبطون الازد اثناء سيادة الوفاق والصفاء بينهم — انقلاب الصفاء الى عداء بين اليهود وبنى الازد وأسبابه — قصة السمهودى عن الملك الفيطون — رأى المؤلف فيها — رأى صاحب الاغانى فى سبب ظهور المداوة بين اليهود والعرب — من هو أبو جبيلة ؟ — لماذا نزح ابوجبيلة لمحاربة يهود يثرب ؟ — هل كانت هناك محالفة بين بطون الازد وملوك غسان ؟ — الارتياب فى صحة قصة ابى جبيلة واضطهاده ليهود يثرب — ملوك غسان والدولة الرومانية الشرقية — الكفاح العنيف بين اليهودية والنصرانية فى الجزيرة — يوم بعاث — قيمة حوادث يوم بعاث — حياة العرب فى الجاهلية — نتائج يوم بعاث

يقول العلماء ان النكبة الشديدة التى نزلت باليهود فى بلاد حمير قد أنتجت نتائج سيئة لم يكن فى الامكان أن تحدث لولا هذه النوائب

وأهم هذه النتائج تحمس العناصر النصرانيـة التى كانت تعتمد على مؤازرة الدولة الرومانيـة ضد الديانة اليهودية وتحركها لهدم كيانها والقضـاء على أصولها ومبادئها فى جميع أنحاء الجزيرة العربية وتهييج طمع القبائل العربية فى أموال اليهود ومستعمراتهم ورغبتهم فى الحصول عليها والاستئثار بها

وقد كانت القبائل العربية قبل ذلك أى فى العصر الذى نمت فيه اليهودية فى بلاد اليمن وانتشرت بين سكانها لا تجرؤ مطلقا سواء منها الحضرى والبدوى على أن تمس اليهود بأذى فى شمال الحجاز أوتصيبهم بأدنى ضرر بل بالعكس تسرب نفوذ اليهودية فى ذلك الشطر من الزمن بين الاعراب حتى صاروا يدخلون فيها زرافات ووحدانا مما حمل بعض المستشرقين من أنصار Wustenfeld على الاعتقاد بانه قد ظهرت فى يثرب دولة يهودية امتد سلطانها السياسى حتى شمل شمال الحجاز بأجمعه

ولكن الواقع ان هذا رأى مبالغ فيه اذ ليس عندنا مصادر موثوق بها تؤيد وجود دولة يهودية فى شمال الحجاز اللهم الا اذا أستثنينا قصة خرافية عن الفيطون ملك يثرب[١] وليس لها فى الواقع ظل من الحقيقة كما سيأتى بيانه

ونريد قبل ان نوفى حوادث اليهود مع العرب فى شمال الحجاز حقها من التفصيل والبيان أن نوجه الانظار الى البطون العربية المجاورة لهم وهى التى نلم بأخبارها بعض الالمام . يقول ابن هشام عن هجرة الاوس والخزرج الى جهات يثرب : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن انه رأى جُرَذا يحفر فى سد مارب الذى كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أراضيهم فعلم انه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد قومه فأمر أصغر ولده اذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم اليه فيَلْطِمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى وعرض أمواله فقال أشراف من أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله وقالت الازد لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالا ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان

---

(١) كتاب الوفاء للسمهودى ص ٨٣

فنزل آل جفنة الشام ونزلت الاوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مرا . . . (١)

ويتضح لنا من قصة ابن هشام أن نزوح الاوس والخزرج الى جهات يثرب حدث قبـل سيل العرم لكن صاحب الأغانى يعتقد أن خروج الازد من اليمن حدث بعد سيل العرم ويقول : لما أرسل الله سيل العرم على أهل مارب وهم الأزد قام رائدهم فقال من كان ذا جمل مفن ووطب مدن وقرية وشن فلينقلب عن بقرات النقم فهذا اليوم يوم هم وليلحق بالثنى من شن فكان الذين نزلوه ازد شنودة ثم قال لهم ومن كان ذا فاقة وفقر وصبر على أزمات الدهر فلياحق ببطن مر فكان الذين سكنوه خزاعة ثم قال لهم من كان منكم يريد الخمر والخمير والأمر والتأمير والديبـاج والحرير فليلحق ببصرى والحضير وهى من أرض الشأم فكان الذين سكنوه غسان ثم قال لهم ومن كان منكم ذا هم بعيـد وجمل شـديد ومزاد جديد فليلحق بقصر عمان فكان الذين نزلوه ازد عمان ثم قال ومن كان يريد الراسخات فى الوحل والمطعمات فى المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكان الذين سكنوها الأوس والخزرج . . . (٢)

وأما الاستاذ الفاضل الخضرى بك فيرجح الرأى الاخير لسببين

(١) لأن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع أملاً خصوصاً انه سائر الى بلد لم يخبره

(٢) وردت هذه القصة فى سورة سبأ على هذا النحو « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنـا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل » فهذا واضح فى أن سيل العرم أصابهم

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ١٢

(٢) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٥

و بدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها . . . (١)

والتسليم باحدى النظريتين المفروضتين فى سبب خروج بنى الازد من اليمن لا يجدينا نفعاً فى المعضلة الجوهرية وهى تعيين زمن حدوث سيل العرم

فالمراجع العربية لا تأتينا بشيء قليل أو كثير عن زمن وقوع هذه الحادثة الطبيعية المهمة فى بلاد اليمن وكان الرأى السائد عند المستشرقين أن سيل العرم حدث فى عصر قديم فى القرن الثانى أو الأول قبل الميلاد وكانت هناك طائفة من علماء الافرنج تعتقد أن كل الروايات التى جاءت عن سيل العرم انما هى خرافات وأباطيل واستمرت هذه الطائفة مقتنعة برأيها هذا حتى ظهرت بحوث العالم المحقق Glaser فى سنة ١٨٩٦ حيث قرر ارتكاناً على منقوشات جلبها من أرض اليمن أن السيل قد حدث فعلا ولكن لم يحدث فى مدة واحدة بل تكررت نوائبه مرات عديدة أما سببه فلا يرجع الى الطبيعة من حدوث أمطار غزيرة فى مرات متوالية فحسب بل كان نتيجة إهمال شديد لهذا السد العظيم نشأ عن فتن داخلية بين الاقيال من جهة و إغارات متوالية من الخارج من جهة أخرى ولما تطاولت الازمان على السد مع هذا الاهمال الشديد تصدعت جوانبه شيئاً فشيئاً ووهت أركانه قليلا قليلا

فلما حدث سيل العرم الأول فى سنة ٤٤٧ ب . م الذى استمر الى سنة ٤٥٠ تنبه القوم الى الخطر المحدق بالسد فاهتموا بأمره وأصلحوا من شأنه ولكن لم تعد له منعته القديمة فلم يحتمل السيول المتواردة زمناً طويلاً وانكسر ثانياً سنة ٥٣٢ ب . م .... (٢)

بعد هذه التحقيقات الجليلة زال الشك من النفوس فى صحة روايات سيل

---

(١) تاريخ الامم الاسلامية جزء ١ ص ١٨

(٢) راجع كتاب Zwei Inschriften uber den Dammbruch von Mareb M. d. v. G.

العرم وانمحى كل ريب في حدوثه ومال بعض المستشرقين الى الجزم بأن نزوح البطون الازدية حدث بعد سيل العرم[1]

ولكن من المتعذر على الباحث الذى يحمل فى يده مصباح عقله أن يقتنع بأن جميع البطون الأزدية هاجرت الى شمال الجزيرة بسبب واحد هو سيل العرم بل دائماً يرى أنه من المحتمل أن تكون هنالك أسباب أخرى اجتمعت مع سيل العرم أو انفردت دونه واضطر بعض هذه البطون الى ترك وطنها والهجرة الى الأرجاء النائية عنه

على أنه يخيل الى أن المؤرخين أسرفوا فى التكبير من شأن سد مأرب وهو لعارفى النتائج التى ترتبت على انكساره مبالغة كبيرة اذ كان هذا السد فيما نعلمه من أبحاث ياقوت فى معجم البلدان قديماً ومن مجهودات قريحة جلازر Glaser حديثاً يسقى ربوة من الأرض لم تكن مسكناً لكل بطون الازد

ويرجح رأينا هذا ما نجده فى جميع الروايات التى تضمنت حوادثه وأخباره من الغموض والابهام والنقص الظاهر فى البيان والتفصيل مع انه حدث حوالى قرن واحد قبل الاسلام وقد تراكمت بشأنه القصص والأساطير حتى صارت عرضة لان يشك العلماء فى صحتها جميعاً ولم يرجعوا عن شكهم الا بعد ان ظهرت أبحاث العالم جلازر Glaser

واذا كان هذا شأن حادثة وقعت قبل الاسلام بقرن واحد فماذا يكون شأن الحوادث التى وقعت قبل سد مأرب بنحو خمسة قرون أو أكثر ؟ . .

وهل يمكننا أن نعول على أخبارها التى ذكرت فى السيرة وفى الطبرى وفى الواقدى ونستنتج منها نتائج ننظم بها أبحاثنا فى تاريخ الجاهلية ؟ . . .

***

(١) A literary history of the Aarbs by R. A Nicholson ص ١٦

من المتعذر علينا إذاً أن نعين الزمن الذى وصلت فيه الأوس والخزرج الى جهات يثرب فلنكتف بما قاله القدماء من انهما من أزد اليمن وانه قد وجدت هناك بطون من اليهود قبل وصولهما الى يثرب

يقول لنا صاحب الأغانى « فلما توجه الأوس والخزرج ووردوها نزلوا فى حرار ثم تفرقوا وكان منهم من لجأ الى عفاء من ارض لا ساكن فيه فنزلوا به ومنهم من لجأ الى قرية من قراها فكانوا مع أهلها فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم التى نزلوها بالمدينة فى جهد وضيق فى المعاش ليسوا بأصحاب نخل وزرع وليس للرجل منهم الا الاغداق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات والأموال لليهود فلبث الأوس بذلك حيناً . . . (١)

وأقام اليهود والعرب مدة طويلة يسود بينهم الوئام والوفاق دون أن يحدث ما يكدر أو يفرق بينهم

فكانت السلطة فى أيدى اليهود ومواليهم من البطون العربية وكانت الأوس والخزرج تشتغل فى الدوائر الزراعية اليهودية ومنهم من كانوا يشتركون مع اليهود فى قوافلهم التجارية

ويحدثنا السمهودى عن حالة اليهود والازد فى دور سيادة الوئام والوفاق بينهم فيقول : . . . وقد وجد الأوس والخزرج الأموال والآطام بأيدى اليهود والعدد والقوة معهم فمكثوا ما شاء الله ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفا يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به من سواهم فتحالفوا وتعاملوا ولم يزالوا كذلك زماناً طويلا وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد وخافت قريظة والنضير أن يغلبوهم على دورهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف . . . فأقاموا خائفين أن تجليهم اليهود حتى نجم منهم مالك بن العجلان . . . (٢)

---

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٦

(٢) خلاصة الوفاء ص ٨٣

١٢٥٦٥

ودار الدهر دورته وظهرت الفتن والعداوات بين اليهود والأوس والخزرج غير أن المصادر العربية لم توافنا بالأسباب الكافية لهذا التغيير واليك ما يقوله السمهودي : وكانت لا تهدى عروس الحيين حتى تدخل على الفيطون ملك اليهود فيكون هو الذى يفتضها فتزوجت أخت مالك رجلا من قومها فبينما مالك فى النادى اذ خرجت أخته فضلاء فنظر اليها أهل المجلس فشق على مالك فدخل وعنفها فقالت ما يصنع بى غداً أعظم أهدى الى غير زوجي فلما أمسى اشتمل على السيف ودخل متنكراً مع النساء وقتل الفيطون وانصرف لدار قومه . . . (١)

و يؤخذ من هذه القصة الملفقة أن السمهودى وأمثاله لم يكن عندهم إلمام كاف بحياة العرب فى الجاهلية بل كانوا يعتبرونهم متوحشين همجيين لا يعرفون من النظم الاجتماعية شيئاً ولا يفهمون من الآداب قليلاً ولا كثيراً ولا ينقادون إلا لما يدعو اليه الخرق والسفاهة

ولا شك أن قولا كهذا ليس إلا طعناً فاحشاً فى قبائل العرب فى الجاهلية وانكاراً شنيعاً لما هومعروف عنهم من الانفة والغيرة و إباء الضيم والشجاعة والبسالة الى حد التضحية بكل شيء فى سبيل العرض وحفظ الشرف والكرامة

ومن جهة أخرى فمثل هذا القول لا يمكن أن يكون له نصيب من الصحة لأن يهود الحجاز إنما كانوا أصحاب دين سماوى يأمر بالمعروف و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وليس من المعقول أن ملكاً يهودياً يرتكب جريمة منكرة كهذه تناقض روح التوراة وتخالف الايمان بآله موسى دون أن يجد مقاومة عنيفة وانكاراً شديداً من شعبه وأبناء جلدته

على أن اختلاق هذه القصة يظهر جلياً متى علمنا أنه لم يوجد ملوك من اليهود فى يثرب

ونرجح أن الباعث على اختلاق هذه القصة وتلفيقها انما هو محاولة إخفاء

(١) خلاصة الوفاء ص ٨٤

الحقيقة فى حادثة غدر ابن العجلان بجيرانه وسفكه لدماء الأبرار منهم كما سيأتى تفصيل ذلك

ومن الغريب أن قصة كهذه تماماً يقصها الطبرى عن طسم وجديس[١] وذلك يدل على أنها من الخرافات الشائعة عند أمم الشرق فى قصصهم وتواريخهم[٢]

ولم يأت ابن هشام والواقدى وصاحب الأغانى بقصة الفيطون بل حدثنا الأخير بخبر يبعثنا على التأمل والبحث فى عوامل التغيير الذى طرأ فجأة على ما كان بين اليهود والبطون العربية من المودة والوئام فقال « إن مالك بن العجلان رحل الى أبى جبيلة الغسانى وهو يومئذ ملك غسان فسأله عن قومه وعن منزلتهم فأخبره بحالهم وضيق معاشهم فقال له أبو جبيلة والله ما نزل قوم منا بلدا إلا غلبوا أهله عليه فما بالكم ؟ ثم أمره بالمضى الى قومه وقال له اعلمهم أنى سائر اليهم فرجع مالك بن العجلان فأخبرهم بأمر أبى جبيلة ثم قل لليهود إن الملك يريد زيارتكم فأعدوا نزلا فأعدوه وأقبل أبو جبيلة سائراً من الشام فى جمع كثيف حتى قدم المدينة فنزل بذى حُرُض ثم أرسل الى الأوس والخزرج فذكر لهم الذى قدم له وأجمع أن يمكر باليهود حتى يقتل رؤساءهم وأشرافهم وخشى إن لم يمكر بهم أن يتحصنوا فى آطامهم فيمتنعوا منه حتى يطول حصاره إياهم فأمر ببناء حائر واسع فبنى ثم أرسل الى اليهود أن أبا جبيلة الملك قد أحب أن تأتوه فلم يبق وجه من وجوه القوم إلا أتاه وجعل الرجل يأتى معه بخاصته وحشمه رجاء أن يحبوهم فلما اجتمعوا ببابه أمر رجالا من جنده أن يدخلوا الحائر الذى بنى ثم يقتلوا كل من يدخل عليهم من اليهود ثم أمر حجابه أن يأذنوا لهم فى الحائر ويدخلوهم رجلا رجلاً فلم يزل الحجاب يأذنون لهم كذلك ويقتلهم الجند الذين فى الحائر حتى أتوا على آخرهم . . . .

---

(١) تاريخ الملوك والرسل للطبرى جزء ٢ ص ٣٧١

(٢) راجع كتاب الف ليلة وليلة (الليله الاولى)

وقد أخذت اليهود تعترض الأوس والخزرج وتناوشهم فقال مالك بن العجلان والله ما أثخنا اليهود غلبة كما نريد فهل لكم أن أصنع لهم طعاماً ثم أرسل فى مائة من أشراف من بقى من اليهود فاذا جاءونى فاقتلوهم جميعاً فقالوا نفعل فلما جاءهم رسول مالك قالوا والله لا نأتيهم أبداً وقد قتل أبو جبيلة منا من قتل فقال لهم مالك إن ذلك كان على غير هوى منا وإنما أردنا أن نمحوه وتعلموا ما لكم عندنا فأجابوه فجعل كلما دخل عليه رجل منهم أمر به مالك بن العجلان فقتل حتى قتل منهم بضعة وثمانين رجلاً ثم إن رجلا منهم أقبل حتى قام على باب مالك فتسمع فلم يسمع صوتاً فرجع وحذر أصحابه الذين بقوا فلم يأت منهم أحد ... وصورت اليهود مالكا فى بيعهم وكنائسهم فكانوا يلعنونه كلما دخلوها . . . فلما قتل مالك من اليهود من قتل ذلوا وقل امتناعهم وخافوا خوفاً شديداً وجعلوا كلما هاجهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم الى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ولكن يذهب اليهودى الى جيرانه الذين هو بين اظهرهم فيقول إنما نحن جيرانكم ومواليكم فكان كل قوم من اليهود قد لجأوا الى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم . . . (١)

وقد يكون من المتعذر ان يقْبَل المؤرخ هذه القصة على علاتها إذ لا شك فى أن اليهود كانوا يحترسون من عمال ملوك الروم كل الاحتراس وكان المعروف فوق ذلك عن يهود الحجاز انهم على جانب عظيم من الفطنة والذكاء وانهم ذوو قوة و بطش فلو أن أمراً كهذا وقع فعلا لأمكنهم أن يحاربوا الأوس والخزرج و يضموا الى جانبهم فى هذه الحرب جميع البطون العربية المجاورة لهم والتى لم تكن تضمر لليهود شراً

على أن أبا جبيلة هذا الذى يقول صاحب الأغانى انه كان ملكا لم يكن من

---

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٧

سلالة ملوك غسان الذين كانوا من بنى جفنة ولم يتول عرش غسان من غير بنى جفنة الا أبو جبيلة والحارث الاعرج اللذان يذكر ابن خلدون فى موضع من كتابه ان الروم ملكوهما عرش الشام[1] وان كان يذكر باسم أبى سعد أن الأعرج لم يكن ملكا وانما كان قائدا ولم يذكر أبا جبيلة البتة[2]

وعلى فرض ان أبا جبيلة والحارث بن الأعرج توليا العرش حقا فلسنا نعلم ما هى الاسباب التى حملت قياصرة الروم على تولية ملكين من غير سلالة آل جفنة ثم ارجاع العرش الى هذه الاسرة ثانيا لان آخر ملوك غسان كان من بنى جفنة وهو جبلة بن الايهم الذى أسلم بعد ان فتح المسلمون الشام ثم ندم ورجع الى دين آبائه ودخل الى بلاد الروم[3]

من أجل هذا نرجح ان أبا جبيلة لم يكن من ملوك غسان ولكن اذا صحت الرواية عن حادثته مع يهود يثرب فمن المحتمل انه كان قائدا ذهب بايعاز من سيده لمنازلة اليهود ويحتمل أيضا من ناحية أخرى أن تكون الاوس والخزرج قد أرادت أن تعقد حلفاً مع بعض قبائل الشمال لأن الحلف التى عقدت بينهم وبين اليهود لم تعد حائزة كل رضاهم بعد ان رسخت أقدامهم فى البلاد وبعد ان اطمأنوا اليها وانبعثت فى نفوسهم المطامع الكبيرة والآمال الواسعة

نعم ان الحلف كانت فى مصلحتهم أول الأمر لأنهم لم يكونوا يطلبون الا أن يعيشوا فلم يكن يسوؤهم أن تبقى الدوائر الزراعية والحركة التجارية فى أيدى اليهود وحدهم وأن يكونوا هم معهم كعمال ومساعدين أما الآن فقد امتدت أنظارهم الى أكثر من هذا

ولم يكن أمامهم من سبيل لتحقيق هذه الآمال والمطامع الا أن يتخلصوا

---

(١) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٢

(٢) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٥

(٣) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨١ . الاغانى جزء ١٤ ص ٣

من حلف اليهود ولم يكن سبيل التخلص من هذه الحلف ممكنا الا اذا اعتمدوا على حلف أخرى يضمنون بها لأنفسهم النفوذ اذا ثارت الثائرة بينهم و بين اليهود

وقد رأوا الفرصة سانحة لعقد محالفة مع ملوك غسان الذين كانوا يقودون حركة المنافسة الشديدة والنضال العنيف الموجه من النصرانيـة ضد اليهودية و بطبيعة الحال كان ملوك غسان يرغبون فى هذه المحالفة مع الاوس والخزرج بل و يسعون اليها ليتمكنوا بها من القضاء على اليهودية فى بلاد الحجاز

وعلى كل حال فقد وجدت علاقات حسنة بين الطرفين كما يؤخذ من قصيدة المدح التى قالها حسان بن ثابت فى ملوك بنى غسان والتى يقول فيها

لله در عصـابة نادمتهـم ... يوما بجلق فى الزمان الاول
أولاد جَفْنَةَ حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يَسقُون من وردَ البريصَ عليهم ... بَرَدَى يصفّق بالرحيق السلسل
يُغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن الســواد المقبل
بيض الوجوه كريمة احسابهم ... شم الانوف من الطراز الاول[1]

ولكن هذا كله لا يثبت صحة ما روى عن أبى جبيلة اذ من الممكن جدا أن تكون العلاقات الحسنة بمثابة التعهد من جانب ملوك غسان بعـد التعرض لتجار البطون اليثربية الذين كانوا يجولون فى أنحاء سورية

ومن الممكن أيضا أن تكون هناك علاقات كهذه بين اليهود و بين بنى غسان نظرا للمصالح التجارية العظيمة التى كانت لليهود فى بلاد غسان[2]

وهنـاك أمر آخر يزيدنا شكا فى صحة قصـة أبى جبيلة ذلك اننـا لا نجد

---

(١) الاغانى جزء ١٤ ص ٢ . ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٠
(٢) تاريخ الخميس جزء ٢ ص ١٣ (ابو الدفاعى الخيبرى يرسل قوافله الى بلاد الشام)

بينها و بين يوم بعاث الذى جاء بعدها أية صلة أو ارتباط بل على العكس من ذلك نستنتج اعتماداً على الا خبار المفصلة التى وصلتنا عن يوم بعاث ان اليهود كانوا متمتعين بجميع حقوقهم السياسية والاجتماعية وكانت مزارعهم وآطامهم وأموالهم كاملة غير منقوصة . . . .

ويقرر المؤرخ Graetz ان بطون الاوس والخزرج لم تصارح اليهود بالعداوة والمعصية الا بعد النكبة التى حلت باليهود فى اليمن اذ لا يتصور أن يضطهد اليهود فى الحجاز فى العصر الذى كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن و يتعصبون لدينهم و يناهضون كل من يناهضهم أو يعتدى عليهم (١)

ويؤيد قول هذا العالم ما ذكره بعض مؤرخى العرب من أن الحجاز الشمالية كانت فى شبه تبعية لليمن فى عصر وجود حمير المتهودة وان واحدا من الاسرة المالكة فى اليمن كان يشرف على شؤون الطوائف المختلفة فى شمال الحجاز (٢)

وقد بقيت البطون العربية عصوراً طويلة على موالاة ومناصرة اليهود دون أن يظهر عليهم شىء يدل على أنهم يتربصون لهم الغوائل الى أن أخذت دولة غسان تنصب لليهود المكايد وتحرض عليهم زعماء الاوس والخزرج ليفتكوا بهم

والظاهر ان دولة بنى غسان لم تفعل هذا الا بايعاز من الدولة الرومانية الشرقية التى أرسلت أسطولها لمساعدة الحبشة فى كفاحها ضد اليهود فى اليمن

وليس غريباً على هذه الدولة أن يحرص عمالها من ملوك غسان على أن يثيروا الفتن والدسائس ضد يهود الحجاز فسياستها هذه واضحة كل الوضوح فى الجزيرة العربية أثناء القرن الخامس والسادس ب . م . وأمامنا قصة فى كتاب السمهودى تستحق العناية لفهم السياسة الدينية عند زعماء النصارى فى الجزيرة العربية وهى ان مالك بن العجلان قد ذهب بعد قتاله للفيطون الى تبع الاصغر

---

(١) Graetz ج ٣ ص ٩١ وص ٤١٠

(٢) Perceval ج ٢ ص ٦٥٤ ينسبها للنويرى

فشكا اليه ما كان من أمر يهود يثرب فعاهده تبع ألا يقرب امرأة ولا يَمَسَّ طيبا ولا يشرب خمرا حتى يسير الى المدينة و يذل اليهود . . (١)

و يعلق العالم Wüstenfeld الذى طبع كتاب السمهودى على رواية تبع الاصغر بقوله انه كان من اقيال الحبشة المتنصرين فى اليمن وانه ذهب لمحاربة يهود الحجاز مساعدة لابى جبيلة الغسانى (٢)

وانى انقل رواية السمهودى عن تبع الاصغر بتحفظ شديد دون أن أميل الى الاعتقاد بصحتها وانما نقلتها لانها توافق أقوال المستشرقين عن الخطة السياسية التى اتبعتها الدولة الرومانية الشرقية فى الاقاليم العربية

و يعتقد العالم Wellhausen ان الكفاح بين النصرانية واليهودية فى بلاد الحجاز كان عنيفا جدا وان اغارات الدولة الفارسية على حدود البلاد الرومانية وقفت الملحمة الفاصلة لزمن ما ولولا ظهور الاسلام لاصبحت بلاد الجزيرة من الوجهة الدينية منقسمة باجمعها إلى قسمين يهودية ونصرانية (٣)

لم يصل الينا من اخبار اليهود فى بلاد الحجاز بعد ان خمدت نار الفتنة بينهم و بين بطون الاوس والخزرج الا ما يعرف بيوم بعاث

و يحدثنا صاحب الاغانى عن هذا اليوم العبوس بقوله : كانت الاوس قد أسندوا أمرهم فى يوم بعاث الى أبى قيس بن الاسلت الوائلى فقام فى حربهم وآثرها على كل أمر حتى شَحَب وتغير ولبث أشهرا لا يقرب امرأة . . . . . وكانت الاوس قد استعانت ببنى قريظة والنضير فى حروبهم التى كانت بينهم و بلغ ذلك الخزرج فبعثت اليهم ان الاوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا ولن يعجزنا أن نستمين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب فان ظفرنا بكم فذاك

(٣) خلاصة الوفاء ص ٨٣

(٢) ويؤيد العالم Wellhausen أقوال Wustenféld فى مصنفه Skizzen und Vorasbeiten Heft 4 ص ٨ — ١١

(٣) Skizzen 4 ص ١٢

ما تكرهون وان ظفرتم لم نتم عن الطلب أبداً فتصيروا الى ما تكرهون ويشغلكم من شأننا ما أنتم الآن منه خالون وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا وتخلوا بيننا و بين اخواننا فلما سمعوا ذلك علموا أنه الحق فأرسلوا الى الخزرج انه قد كان الذى بلغكم والتمست الاوس نصرنا وما كنا لننصرهم عليكم أبدا فقالت لهم الخزرج فان كان ذلك كذلك فابعثوا الينا برهائن تكون فى أيدينا فبعثوا اليهم أربعين غلاما منهم ففرقهم الخزرج فى دورهم فمكثوا بذلك مدة ثم ان عمرو بن النعمان البياضى قال لقومه بياضة ان عامرا أنزلكم منزل سَوْءٍ بين سَبِخَةٍ ومفازة وانه والله لا يمس رأسى غسل حتى انزلكم منازل بنى قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل ثم راسلهم إما ان تخلوا بيننا و بين دياركم نسكنها واما ان نقتل رهنكم فهموا ان يخرجوا من ديارهم فقال لهم كعب بن أسد القرظى يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الرهن والله ما هى الا ليلة يصيب فيها أحد امرأته حتى يولد له غلام مثل أحد الرهن فاجتمع رأيهم على ذلك فأرسلوا الى عمرو بان لا نسلم لكم دورنا وانظروا الذى عاهدتمونا عليه فى رهننا فقوموا لنا به فعدا عمرو بن النعمان على رهنهم هو ومن أطاعه من الخزرج فقتلوهم وأبى عبد الله بن أبى وكان سيداً حليما وقال هذا عقوق ومأثم و بغى فلست معينا عليه ولا أحد من قومى أطاعنى وكان عنده فى الرهن سليمان بن أسد القرظى وهو جد محمد بن كعب القرظى نخلى عنه وأطلق ناس من الخزرج نفرا فلحقوا بأهليهم فناوشت الاوس الخزرج يوم قتل الرهن مناوشة ضئيلة

واجتمعت قريظة والنضير الى كعب بن أسد أخى بنى عمرو بن قريظة ثم تآمروا أن يعينوا الاوس على الخزرج فبعث الى الاوس بذلك ثم أجمعوا أن ينزل كل أهل بيت من النبيت على بيت من قريظة والنضير فنزلوا معهم فى دورهم وأرسلوا الى النبيت يأمرونهم بأتيانهم وتعاهدوا ألا يسلموهم أبداً وأن يقاتلوا معهم حتى لا يبقى منهم أحد فجاءتهم النبيت فنزلوا مع قريظة والنضير ثم أرسلوا

الى سائر الاوس فى الحرب والقيام معهم على الخروج فأجابوهم الى ذلك فاجتمع الملأ منهم واستحكم أمرهم وجدوا فى حربهم ودخلت بينهم قبائل من أهل المدينة منهم بنو ثعلبة وهم من غسان و بنو زعوراء وهم من غسان فلما سمعت بذلك الخزرج اجتمعوا ثم خرجوا وفيهم عمرو بن النعمان البياضى وعمرو بن الجموح السلمى حتى جاءوا عبد الله بن أبى وقالوا له قد كان الذى بلغك من أمر الأوس وأمر قريظة والنضير واجتماعهم على حربنا وانا نرى أن نقاتلهم فان هزمناهم لم يحرز أحد منهم معقله ولا ملجأه حتى لا يبقى منهم أحد

فلما فرغوا من مقالتهم قام عبد الله بن أبى خطيبا وقال ان هذا بغى منكم على قومكم وعقوق والله ما أحب ان رَجُلا من جراد لقيناهم وقد بلغنى أنهم يقولون هؤلاء قومنا منعونا الحياة فيمنعوننا الموت والله انى أرى قوما لا ينتهون أو يهلكوا عامتكم وانى لأخاف ان قاتلوكم ان ينصروا عليكم لبغيكم عليهم فقاتلوا قومكم كما كنتم تقاتلونهم فاذا ولوا فخلوا عنهم فاذا هزموكم فدخلتم أدنى البيوت خلوا عنكم فقال له عمرو بن النعمان انتفخ والله سَحْرُك يا أبا الحارث حين بلغك حلف الاوس قريظة والنضير فقال عبد الله والله لاحضرتكم ابدا ولا احد اطاعنى ابدا ولكأنى انظر اليك قتيلا تحملك أربعة فى عباء وتابع عبد الله بن ابى رجال من الخزرج منهم عمرو بن الجموح الحرامى واجتمع كلام الخزرج على ان رأسوا عليهم عمرو بن النعمان البياضى وولوه أمر حربهم

ولبثت الأوس والخزرج أربعين ليلة يتصنعون للحرب ويجمع بعضهم لبعض ويرسلون الى حلفائهم من قبائل العرب فأرسلت الخزرج الى جهينة واشجع فكان الذى ذهب الى اشجع ثابت بن قيس بن شماس فأجابوه وأقبلوا اليهم وأقبلت جهينة اليهم أيضاً وأرسلت الأوس الى مزينة وذهب حضير الكتائب الاشهلى الى أبى قيس فقام حضير فاعتمد قوسه فحرضهم وأمرهم بالجد فى حربهم

وذكر ما صنعت بهم الخزرج من اخراج النبيت واذلال من تخلف من سائر الأوس فى كلام كثير . . .

فأجابته أوس الله بالذى يحب من النصرة والمؤازرة والجد فى الحرب وأما الأوس فاجتمعت يومئذ الى حضير بموضع يقال له الحياة فأجابوا الرأى فقالت الأوس ان ظفرنا بالخزرج لم نبق منهم أحداً ولم نقاتلهم كما كنا نقاتلهم فقال حضير يامعشر الأوس ما سميتم الأوس إلا لأنكم تؤسون الأمور الواسعة

ولما اجتمعوا بالحياة طرحوا بين أيديهم تمراً وجعلوا يأكلون وحضير الكتائب جالس وعليه بردة له قد اشتمل بها الصماء ما يأكل معهم ولا يدنو الى التمر غضباً وحنقاً فقال يا قوم اعقدوا لأبى قيس بن الاسلت فقال لهم أبو قيس لا أقبل ذلك فانى لم أرأس على قوم قط إلا هزموا وتشاءموا برياستى وجعلوا ينظرون الى حضير واعتزاله أكلهم واشتغاله بما هم فيه من أمر الحرب وقد بدت خصياه من تحت البرد فاذا رأى منهم ما يكره من الفتور والتخاذل تقلصتا غيظاً وغضباً واذا رأى منهم ما يحب من الجد والتشمير فى الحرب عادتا لحالهما وأجابت الى ذلك أوس مناهُ وجدوا فى المؤازرة والمظاهرة وقدمت مزينة على الاوس فانطلق حضير وأبو عامر الراهب بن صيفى [٢] الى أبى قيس بن الاسلت فقالوا قد جاءتنا مزينة واجتمع الينا من أهل يثرب ما لاقبل للخزرج به فما الرأى ان نحن ظهرنا عليهم الانجاز أم البقية فقال أبو قيس بل البقيـة قل أبو عامر والله لوددت أن مكانهم ثعلبا ضباحا فقال أبو قيس اقتلوهم حتى يقولوا بزا بزا كلمة كانوا يقولونها اذا غلبوا فتشاجروا فى ذلك وأقسم حضير ألا يشرب خمرا أو يظهر ويهدم مزاحما أطم عبد الله بن أبى فلبثوا شهرين يمدون و يستعدون ثم التقوا ببعاث وتخلف عن الاوس بنو حارثة بن الحارث فبعثوا الى الخزرج إنا والله

---

(١) وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وكان يقال له الراهب . ابن هشام جزء ٢ ص ١٧٧

ما نريد قتالكم فبعثوا اليهم أن ابعثوا الينا برهن منكم يكونون فى أيدينا فبعثوا اليهم اثنى عشر رجلا منهم خديج و بعاث من أموال بنى قريظة فيها مزرعة يقال لها قورى فلذلك تدعى بعاث الحرب وحشـد الحيان فلم يتخلف عنهم الا من لا ذكر له ولم يكونوا حشدوا قبل ذلك فى يوم التقوا فيه فلما رأت الاوس الخزرج أعظموهم وقالوا لحضير يا أبا أسـيد لو حاجزت القوم و بعثت الى من تخلف من حلفائك من مزينة فطرح قوسا كانت فى يده ثم قال انظروا مزينة وقد نظر الى القوم ونظرت اليهم الموت قبـل ذلك . ثم حمل وحملوا فاقتتلوا قتـالا شديداً فانهزم الاوس حين وجدوا مس السلاح فولوا مصعدين فى حرة قورى نحو العريض وذلك وجه طريق نجد فنزل حضير وصاحت بهم الخزرج أين الفرار الا أن نجدا سنت أى مجدب يعيرونهم فلما سمع حضير طعن بسنان رمحه فخذه ونزل وصاح واعقراه والله لا أريم حتى أقتل فان شئتم يامعشر الاوس أن تسـلمونى فافعلوا فتقطعت عليه الاوس وقام على رأسه غلامان من بنى عبـد الاشهل فقاتلا حتى قتلا وأقبل سهم حتى أصاب عمرو بن النعمان رأس الخزرج فقتله لا يدرى من رمى به الا ان بنى قريظة تزعم انه سهم رجل يقال له أبو لبابة فقتله فبينا عبدالله ابن أبى يتردد على بغلة له قريبـا من بعات يتجسس أخبار القوم اذ طلع عليه بعمرو بن النعمان ميتا فى عباءة له يحمله أربعة الى داره فلما رآه عبد الله بن أبى قال من هذا قالوا عمرو بن النعمان قال ذق و بال العقوق وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الاوس السـلاح وصاح صائح يامعشر الاوس أسجحوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب فتناهت الاوس وكفت عن سلبهم بعد إثخان فيهم وسلبتهم قريظة والنضير وجعلت الاوس تحرق على الخزرج نخلها ودورها فخرج سعد بن معاذ الاشهلى حتى وقف على باب بنى سلمة وأجارهم وأموالهم جزاء لهم بيوم الرعل وكان للخزرج على الاوس يوم يقال له يوم مفلس ومضرس وكان سعد ابن معاذ حمل يومئذ جريحا الى عمرو بن الجموح فمن عليه وأجاره وأخاه يوم رعل

وهو على الاوس من القطع والحرق فكافأه سعد بمثل ذلك فى يوم بعاث وأقسم كعب بن أسد القرظى ليذلن عبد الله بن أبى وليحلقن رأسه تحت مزاحم فناداه كعب انزل ياعدو الله أنشدك الله وما خذلت عنكم فسأل عما قال فوجده حقاً فرجع عنه واجتمعت الاوس على أن تهدم مزاحماً أطم عبد الله بن أبى وحلف حضير ليهدمنه فكلم فيه فأمرهم أن يريشوا فيه كوة وأفلت يومئذ الزبير بن اياس بن باطا ثابت بن قيس شماس أخا بنى الحرث وهى النعمة التى كافأه بها ثابت فى الاسلام يوم بنى قريظة (١)

وخرج حضير الكتائب وأبو عامر الراهب حتى أتيا أبا قيس بن الاسلت بعد الهزيمة فقال له حضير يا أبا قيس ان رأيت ان نأتى الخزرج قصرا قصرا ودارا دارا نقتل ونهدم حتى لا يبقى منهم أحد فقال أبو قيس والله لا نفعل ذلك فغضب حضير وقال ما سميتم الاوس الا لأنكم تؤسون الامر أوسا ولو ظفرت منا الخزرج بمثلها ما أقالوناها ثم انصرف الى الاوس فأمرهم بالرجوع الى ديارهم وكان حضير جرح يومئذ جروحاً شديدة ثم مات من الجراح التى كانت به

وكان يهودى أعمى من بنى قريظة يومئذ فى أطم من آطامهم فقال لابنة له أشرفى على الاطم فانظرى ما فعل القوم فأشرفت وقالت أسمع الصوت قد ارتفع فى أعلى قورى وأسمع قائلا يقول اضربوا يا آل الخزرج فقال الدولة اذاً على الاوس لا خير فى البقاء ثم قال ماذا تسمعين قالت أسمع رجالا يقولون يا آل الاوس ورجالا يقولون يا آل الخزرج قال الآن حمى القتال ثم لبث ساعة ثم قال أشرفى فاسمعى فأشرفت فقالت. أسمع قوما يقولون نحن بنو صخرة أصحاب الرعل. قال تلك بنو عبد الاشهل ظفرت . . . ثم وثب فرحا نحو باب الاطم فضرب رأسه بحاق بابه وكان من حجارة فسقط فمات

---

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٩٤

وقال خفاف بن ندبة يرثى حضير الكاتب وكان نديمه وصديقه :

لو ان المنايا حدن عن ذى مهابة　　لهبن حضيراً يوم أغلق داقما
أطاف به حتى اذا الليل جنه　　تبوأ منه منزلا متناعما . . .

* * *

أتانى حديث فكذبته　　وقيل خليلك فى المرمس
فياعين ابكى حضير الندى　　حضير الكتائب والمجلس
ويوم شديد اوار الحديد　　تقطع منه عرى الانفس
صليت به وعليك الحديد　　ما بين سلع الى الاعرس
فأودى بنفسك يوم الوغى　　وتقى ثيابك لم تدنس . . . (١)

. . . . اهـ

* * *

ولما كانت حوادث هذا اليوم قدجرت قبيل ظهور الاسلام بخمس سنوات قبل الهجرة وكان كثير من زعماء الأوس والخزرج واليهود الذين جالوا فى ميدان الوغى قد أدركوا الاسلام حتى كان لبعضهم أثر ظاهر فى حوادث المدينة بعد هجرة النبي محمد اليها فلا شك أنه يوم حقيقى وأن أغلب ما نقلنا من أخباره صحيح

وللبخارى حديث يدل على الوقع العظيم الذى كان ليوم بعاث فى نفوس أهل يثرب « قالت عائشة دخل على رسول الله وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر فانتهرنى وقال مزمارة الشيطان عند رسول الله (٢)

وقد ظل اليهود بعد هذا اليوم محتفظين بمكانتهم بين القبائل العربية حتى

---

(١) الاغانى جزء ١٥ ص ١٠٤ — ١٥٩
(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٢٥

ان الأوس والخزرج كانتا تحسبان لقوتهم حساباً كبيراً وكانت كل منهما تجتهد في أن تميلهم اليها ليساعدوها في كفاحها ضد الأخرى

وكذلك تبين لنا من يوم بعاث أن اليهود كانوا أهل نضال وكفاح وأنهم كانوا كالأعراب في قسوتهم وغلظتهم المعروفتين عنهم في الجاهلية حتى ان بني النضير وقريظة أثخنوا في بني قينقاع ومزقوا شملهم بسبب انضمامهم الى بني الخزرج ليكونوا عوناً لهم على أبناء جلدتهم

وقد أظهر الربيع بن أبي الحقيق استياءه الشديد من تلك المعاملة الغليظة لبني قينقاع فذكر معايب بني النضير وقريظة وكان الربيع من شعراء اليهود من بني قريظة وكان أحد الرؤساء في يوم حرب بعاث وكان حليفاً للخزرج هو وقومه فقال :

سئمت وأمسيت رهن الفرا ش من جُرْمِ قومي ومن مَغْرَمِ

ومن سَفَهِ الرأي بعد النُّهَى وعيب الرشاد ولم يفهم

فلو أن قومي أطاعوا الحليـ ـم لم يتعدوا ولم يظلم

ولكن قومي أطاعو الغوا ة حتى تعكس أهل الدم

فأودَى السفيه برأى الحليـ ـم وانتشر الأمر لم يبرم...(١)

وكان من نتائج يوم بعاث أن ضعف روح العدوان والحقد في نفوس البطون البريئة حتى أخذ الناس ينصرفون لأعمالهم و يتذوقون لذة الراحة وهناءة العيش وصفاء البال

وكانوا كلما همّ أحدهم أن يصب زيتاً حامياً على نار العداوة الكامنة في

---

(١) الاغاني جزء ٢١ ص ٦٢ واما ابن سلام الجمحي صاحب طبقات الشعراء فانه يقول ان الربيع بن ابي الحقيق من بني النضير (ص ١١٠ طبع مصر) ونحن نرجح رأي الجمحي على رأي صاحب الاغاني لما اتضح لنا من ان آل بني الحقيق من بطون بني النضير

القلوب ليزيد فى ضرامهـا و يعظم من أوارها سعى كثير من الزعماء وذوى النفوذ من الطرفين لـكف يده حتى لا تسل السيوف من اغمادها

وعلى العموم فان يوم بعاث قد أضعف بطون يثرب قاطبة وأدخل فيها الميل الى الاتحاد حتى أرادت فيما يقال أن تملك عليها ملكا من بنى الخزرج كما يحدثنا ابن هشام « ان قوم عبد الله بن أبى قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملـكوه عليهم ثم جاء رسول الله الى المدينة وانصرف القوم عن عبد الله و رأى أن الرسول قد استلبه ملـكا فلما أن رأى قومه قد أبوا الا الاسـلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن وكان لا يختلف عليه فى شرفه اثنان لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين . . . »(١)

فـكأن قلوب بنى يثرب على اختلاف قبائلها وكثرة نزعاتها قد سئمت العداوة وكرهت حالة الجفاء والخشونة وشعرت بالحاجة الى من يخرجهم منها و يوجه عنايتهم الى ما هو أكثر خيراً وأعظم نفعا

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٧٧

الباب الرابع

أحوال العرب الاجتماعية والدينية والسياسية

فى بلاد الحجاز قبيل ظهور الاسلام

مسايرة النمو الادبى والاجتماعى للتقلبات السياسية — بسط نفوذ الدين اليهودى فى الحجاز — الديانة الاسرائيلية لا تميل الى ارغام الامم على اعتناقها — العوامل التى حالت دون انتشار اليهودية فى الحجاز — قصص ابن هشام فى مبلغ تأثير اليهود فى عقلية العرب — طعن بعض المستشرقين فى صحة وجود صلة قرابة قديمة بين العرب واليهود — رد هذا الطعن بالادلة التاريخية وابحاث بعض المستشرقين — عادة الختان عند العرب واليهود وهل اخذها العرب من اليهود ؟ — التعبير (ملة ابراهيم حنيفا) وعادة الختان — الحنيفية فى بلاد الحجاز — الجدل بين المستشرقين فى هذا الموضوع — زيد بن عمرو بن نفيل والحنيفية — النسأة عند العرب واليهود — الاصطلاحات الوثنية عند العرب وعلاقتها باللغة العبرية — ضعف تأثير الديانة المسيحية فى قلوب أهل الحجاز — حالة اليهود الاجتماعية والدينية بين العرب فى الجاهلية — الحالة عند قبائل الحجاز قبيل ظهور الاسلام — يوم الفجار ونتائجه — النهضة الفكرية فى بلاد الحجاز قبيل ظهور الاسلام — قس بن ساعدة — امية بن ابى الصلت — استعداد القلوب العربية لقبول ديانة سماوية جديدة

— — • — —

اذا أنعمنا النظر فى التاريخ العام نجد النمو الادبى والتغير الفكرى فى أمة من الأمم يمتد ويسمو الى الدرجات الرفيعة مع امتداد النمو السياسى وازدياد الرقى الى ذرى المجد بقوة السيف والبطش كما نراه يسقط شيئاً فشيئاً ويتدهور تدريجياً كلما تدهورت القوة المادية فى تلك الأمة وضعف سلطانها

وتكاد تكون هذه الظاهرة عامة وشاملة لكل الامم والشعوب ولكننا لا نجدها حين نبحث عنها فى يهود الجزيرة العربية اذ بعد ان انتصر الحبشيون على ملوك

حمير المتهودة و بعد ان أظهر أبو جبيلة الأوس والخزرج على يهود يثرب — اذا فرضنا صحة هذه الرواية — بقي سلطانهم الفكرى بوجه عام ونفوذهم الدينى بوجه خاص قويين سليمين لم تنل منهما قوة أعدائهم الا قليلا

ولا شك أنه كان فى مقدرة اليهودية أن تزيد فى بسط نفوذها الدينى على العرب حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ولكن الذى يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الاسرائيلية لم تمل بوجه عام الى ارغام الامم على اعتناق دينها وان نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود (١)

ولسنا نعرف فى تاريخ اليهود أنهم أرغموا بقوة السيف أمة من الامم على اعتناق اليهودية اذا استثنينا حادثة واحدة ارغم فيها الملك اليهودى يوحنان هوركانوس طوائف بنى أدوم على اعتناق اليهودية صاغرين بعد ان استولى على بلادهم عنوة ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن اليهود كانوا يعتبرون بنى أدوم إخوة لهم فى الجنسية اذ لم تكن هناك بينهم فروق ظاهرة فى العقلية والتقاليد فلعلهم أرادوا بارغامهم اياهم على اعتناق اليهودية أن يزيلوا الفارق الدينى أيضاً... (٢)

وهناك عامل آخر حال دون انتشار اليهودية فى الحجاز : فاليهودية كما نفهمها هى خلاصة القانون التلمودى بعقائده وتقاليده وطقوسه وهذا القانون الذى نشأ فى بيئة معينة وفى مدة قرون معينة والذى استمد مبادئه وتعاليمه من نصوص التوراة قد أدخلت عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التى طرأت على اليهود مع التغير الاجتماعى والرقى الروحانى الذى طبع العقلية اليهودية بطابع جديد لم يكن يعرف فى العصور الاسرائيلية القديمة وقد نجم عن ذلك ان الذين أرادوا

---

(١) راجع التلمود كتاب קידושין ע وكتاب יבמות מז

(٢) Klausmer جـ ٢ ص ٧٢ وكتاب Simhoni جـ ٢ ص ١٠٣

أن يقبلوا جوهريات صحف التوراة دون أن يخضعوا للناموس التلمودى وعقائده لم يؤذن لهم باعتناق اليهودية ولا شك ان هذا كان من أهم الاسباب التى أدت الى ظهور النصرانية فان طوائف اليونان والسريان المجاورة لفلسطين قد تأثرت بالدين الاسرائيلى وارتاحت لتعاليم التوراة فاعتنقت العقائد الجوهرية وآمنت بالمبادئ الأساسية ورفضت ما لا يناسب روحها القومى ولا يتفق مع تقاليدها القديمة

كذلك وجدت هذه النفسية فى الجزيرة العربية اذ تأثر كثيرون من العرب بتعاليم اليهودية وأخذوا يخضعون لبعض الاصول الجوهرية من التوراة دون أن ينقادوا للبعض الآخر فلم ترض منهم اليهودية ذلك ولم تقربهم الى الله بل لم تفرق بينهم و بين بقية عبدة الأصنام لأنهم لم يقبلوا التمسك بالسبت ولم يخضعوا لبقية وصايا التوراة والتلمود

وهكذا صمم اليهود الذين انفردوا عدة قرون بحمل راية التوحيد على أن يبعدوا عن اليهودية كل من أراد أن يعتنقها الا اذا توافرت فيه جميع شروط التوراة والتلمود وخضع لكل نظمها دون أن يفضل بعضها على بعض

على أن المسيحيين والمسلمين نحوا هذا النحو مع كل من أراد أن يعتنق المسيحية أو الاسلام اذ لم يرض المسيحيون من شخص أن يعتنق بعض ما جاء فى الانجيل وينكر مالم يوافق هواه وكذلك رفض المسلمون أن يدخلوا فى حظيرة الاسلام من آمن ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر

وهناك أمر آخر عاق انتشار اليهودية بين العرب ذلك ان التوراة والتلمود كلفا الانسان بتكاليف صعبة و ربطاه بتقاليد كثيرة لم يألفها فلم يستطع العربى الذى لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن يدركها بسهولة وعسر على نفسه أن تقبل التقليد باغلال لا تحصى من القوانين الثابتة الثقيلة وهى المطبوعة على حب الاستقلال والحرية

و يقول الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار : وهناك أمر آخر له خطر . وهو

ان اليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وشعبه المختار من بين شعوب الارض . ولا تسمح أنفسهم أن تكون هذه الميزات لشعب آخر ليس منهم . لهذا لا يقرون بأن الله يختار نبيا غير اسرائيلي . (راجع آية — ١ — وما بعدها من الاصحاح ١٤ تثنية) — اه

كنا قد ذكرنا فى الفصول الماضية ان بطونا عربية كثيرة سكنت بجوار اليهود فى يثرب وخيبر ووادى القرى ولكن الاختلاط والتأثير بين العرب واليهود لم يقف عند هذا الحد بل انه انتشر فى أكثر أقاليم العرب عموما والحجاز خصوصا . كانت مستعمرات اليهود واقعة على طريق القوافل الآتية من الحجاز واليمن قاصدة الى سورية والعراق وكان تجار العرب يأتون الى الاسواق اليهودية فى شمال الحجاز ليبتاعوا من حاصلات اليهود وصناعاتهم وكذلك كان اليهود يعرضون بضاعتهم فى الاسواق التى كان العرب يقيمونها فى جهات شتى فينتج عن التعاون الاقتصادى والاختلاط الاجتماعى تبادل فى الآراء وجدال فى الديانات

كان اليهود يفتخرون بدينهم ويقصون على الاعراب ما يعلمون من عظمة الله وجبروته وعن خلق الدنيا والجنة والنار والقيامة والبعث والحساب والميزان وكانوا يذكرون معايب الوثنيين ويعزقون أعراض الأصنام جهرا كما يحدثنا ابن هشام اذ يقول « كان سلمة من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بن عبد الأشهل قال فخرج علينا يوما من بيته حتى وقف على بنى الاشهل وأنا يومئذ أحدث من فيه سنا على بردة لى مضطجع فيها بفناء أهلى فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار قال فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون ان بعثا كائن بعد الموت فقالوا له ويحك يافلان أو ترى ان هذا كائن ان الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم قال نعم والذى يحلف به ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى الدار يحمونه ثم

يدخلونه اياه فيظنونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً فقالوا له ويحك يافلان فما آية ذلك قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده الى مكةواليمن.... (١)

***

يوجد عند بعض الباحثين ميل الى اعتقاد أن اليهود تعمدوا نشر قصص التوراة والتلمود بين العرب لأسباب سياسية ودينية وأنها فى حقيقة الأمردسيسة لفقها اليهود للعرب تزلفاً اليهم واحتيالا على كسب عطفهم وتوثيق عرى المودة والألفة بينهم » ويقول أحد هؤلاء العلماء : « . . . ان هذه الطريقة من سنن اليهود المألوفة اذ لوحظ عليهم كثيراً أنهم متى رأوا المصلحة فى التودد الى قوم قالوا لهم أنتم اخواننا ونحن وأنتم صنوان . . . وظلوا منذ ذلك العهد الى ظهور الاسلام وهم يبذلون جهدهم فى اشراب العرب عقيدة أنهم جميعاً ذرية أب واحد حتى نجحت فيهم هذه الأكذوبة التى كان العرب أجهل من أن يتبينوا ما فيها من كذب وتلفيق

ولما ظهر النبي محمد رأى المصلحة فى اقرارها فأقرها وقال للعرب انما هو يدعوهم الى ملة ابراهيم . . . (٢)

والمتأمل فى هذه النظرية التى يشم منها رائحة الطعن فى ديانة سماوية يرى أنها مجردة عن الصحة وليس فيها من الحقيقة التاريخية عين ولا أثر ويؤكد فسادها ما يأتى :

(١) ان اليهود كانوا يقصون على العرب الاقاصيص المذكورة فى التوراة والتلمود كما هى دون أن يزيدوا عليها شيئاً من عند أنفسهم

(٢) اذا وجد الميل عند بعض المستشرقين الى انكار وجود الآباء الأقدمين لبنى اسرائيل من ابراهيم واسماعيل واسحاق و يعقوب فانهم لايستطيعون أن

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٣
(٢) مقالة فى الاسلام من كتب المبشرين ص ١٨

ينكروا وجود قبائل بنى اسرائيل وقبائل بنى اسماعيل لان التوراة نصت على وجودها فى طورسينا والحجاز بما ذكرته من الحوادث التى وقعت بين بطون اسماعيلية وأدومية واسرائيلية ولا شك أن هذا كاف لاثبات العلاقة الدموية المتينة بين اليهود وعرب طور سينا والحجاز

وقد عثرت على نص فى التوراة يؤيد نظريتى فى هذا الصدد ولكنى مضطر الى أن أترجم هذا النص ترجمة عربية جديدة لان تراجم التوراة العربية والافرنجية قد أخطأت فى تفسيرها الحقيقى وهذا هو النص العبرى : וישכנו (בני־ישמעאל) מחוילה עד שור אשר על פני מצרים באכה אשורה על פני כל אחיו נפל [١]

ومعناه : ونزلت (بطون بنى اسماعيل) مع نشأتها [٢] بين اخوتها واستوطنت البلاد من الحولة الى طريق القوافل بين مصر والعراق

(٣) قرر علماء الافرنج جميعاً أن علاقة بطون بنى اسرائيل الجنوبية بعرب الحجاز وطورسينا أقرب منها الى قبائل بنى اسرائيل الشمالية كل هذا يوضح انه لم تكن ليهود الحجاز ضرورة لاختلاق الأباطيل [٣]

وأما الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار فيقول : لو أن اليهود كانوا فى تلك الأزمان المنصرمة يستغلون القرابة يخترعونها لتكون رباطاً بينهم وبين قوم يرجون منهم نفعاً أو يخشون منهم ضرراً أو حيفاً لكان الأجدر بتلك القرابة الروماني والفرس أى الأمم التى تعاقب حكمها عليهم فى الأزمنة المختلفة . ولكننا لم نرهم شيئاً من ذلك ودعوى انهم يفعلون ذلك مع الأمم كلما رجوا نفعاً أو خافوا حيفاً دعوى لا نظن ان من يدعيها يقدر أن يقيم أدنى برهان عليها

---

(١) التكوين فصل ٢٥ / ١٨

(٢) راجع فى نهاية هذا الباب عن النشأة ص ٨١

(٣) ص ٢٧ — ٣٤ Israel's settlement in Canaan

ص ١ — ٥٦ Relation between Arabs and Israelites

وأعجب ما يعجب له السامع لأولئك الطاعنين فى اليهود بهذه الفرية أن يكون اليهود يخترعون تلك الاسطورة تزلفاً لقريش أو العدنانيين فى حين أنه ليس ثمة من صلات بين اليهود وقريش تجعل الأولين يرهبون سطوة الآخرين ويرجون خيرهم لبعد الشقة بين مواطن الفريقين ولم يعهد أحد ولم يرو راو فى القديم ولا فى الحديث أن اليهود استعانوا قريشاً فى حرب من حروبهم أو غزوة من غزواتهم معتمدين على صلة القرابة واتحاد الدم أو على صلة أخرى من الصلات التى تكون بين الشعوب المتقاربة أو المتباعدة

ولو أن اليهود يتجرون بأُحْمَةَ القرابة النسبية ويستغلونها للمصلحة يجلبونها أو المضرة يدفعونها لكان الأليق بهم والأجدر أن يخترعوا تلك القرابة بينهم وبين الأوس والخزرج الذين يتاخمونهم ويشاركونهم فى المواطن والمرافق ويرتبطون معهم بربط المعاملة والجوار . فكيف يتركون هؤلاء المجاورين لهم ويخترعون أسطورة يلفقونها تربطهم بقوم بعيدى الدار لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً

بقى أمر آخر له أهمية فى هذا الموضوع : وهو أن أسفار التوراة ترجمت الى اليونانيـة فى عهد بطليموس فيلادلفوس . وهو ثانى ملك من البطالسة فى مصر ويوافق حكمه أوائل القرن الثالث قبل المسيح وفى صلب تلك الترجمة كل النصوص التى تنص على ارتباط العرب الاسماعيلية بالقرابة النسبية مع اليهود وذلك قبـل رحيل يهود يثرب الى الحجاز بما يقرب من أربعة قرون . فهل كان اليهود يعلمون ما ستحدثه الأيام وانهم بعد أربعة قرون أو أكثر سيصيرون الى بلاد العرب ويتخذونها دار مقام لهم . ثم أنهم سوف يحتاجون الى ربط أنفسهم برابطة النسب مع قوم من العرب لا يخالطونهم فى الدار وليس بينهم وبينهم حلف أو جوار فأعدوا ذلك قبـل ترجمة التوراة الى اليونانيـة وكذبوا تلك الأكذوبة سلفاً وقبـل الاحتياج اليها بقرون متطاولة . اذا قال أولئك الطاعنون على اليهود : نعم ، فليس لدينا ما نجيبهم به سوى قول القائل :

من كان يخلق ما يقول فخيلتى فيه قليلة .... اه —

ومهما يكن من الأمر فان اتصال العرب باليهود قد أدى الى تغيير جوهرى فى عقلية المضر والبادية بالحجاز وظهرت هناك نظم جديدة طرأت على شؤونهم الاجتماعية وتسربت الاصطلاحات من العبرية الى العربية

وإنى أشير هنا الى بعض التغييرات التى يعتقد العلماء انها ظهرت فى الحجاز بعد وصول اليهود اليها فى طورهم الثانى ...

لا شك فى أن عادة الختان لم تسر من اليهود الى العرب لأنها كانت شائعة عند قبائل مختلفة فى الجزيرة العربية منذ عصور غابرة ويستدل العالم (Wellhausen)[1] بوجود قبائل متوحشة حتى فى أفريقيا كانت تألف هذه العادة

ولست أنكر صحة هذا الرأى لأن التوراة توضح لنا أن بنى إسرائيل قد جاءوا بالختان من موطنهم الاصلى فعلى ذلك يحتمل أن هذه العادة كانت ذائعة عند قبائل أخرى مجاورة لبنى إسرائيل فى الصحراء

غير أن هناك اعتباراً آخر لم يمعن العلماء نظرهم فى فحصه ربما يرشدنا الى اكتشاف تأثير اليهود على العرب فى عادة الختان

كان الاصطلاح « ملة ابراهيم حنيفا »[2] شائعاً عند العرب قبل ظهور الاسلام وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكرى العرب لم تكن عبادة الأوثان تعجبهم وكانوا يرون أن التقرب الى الله بالحجارة أمر لا قيمة له

لا أريد أن أعود الى اقوال مفسرى القرآن فى هذه العبارة ولكن أجتهد فى أن أصل الى تفسير جديد لهذا الاصطلاح

---

(١) ص ١٤٥ Skizzen & Vorarbeiten H III

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٧ و ٢١٩ و ٢٢١

يعرف العضو التناسلي بعد ختانه في العبرية باسم مِلَّة (מילה) كما انله اسما خاصاً قبل ختانه وهو غرلة

وبما أن الختان من أصول الدين الاسرائيلي [١] فقد عبر الناموس الديني عن كل من اختتن انه دخل في ذمة وعهد ابراهيم الخليل להכניסו בבריתו של אברהם אבינו

ومن هنا أطلق اليهود على كل من اختتن التعبير « ملة ابراهيم » وهـذا اللفظ يقوله العاذر للطفل عند ما يعذره والحاضرون يؤمنون (עונים אמן)

ولـكن من حيث أن الختان وحده لا يؤدى الى الايمان باليهودية لأن هناك شروطاً أخرى لا بد من توفرها كاعلان الدخول في الديانة التوحيدية الاسرائيلية واتباع ما تأمر به التوراة واجتناب ما تنهى عنه فقـد أطلق اليهود على كل من يختتن دون أن يعتنق اليهودية اسم حنيف חנף [٢] غير الصالح أى الختان الغير الوافى بالشروط اليهودية وقد جاء في لسان العرب وكان في الجاهلية يقال من اختتن وحج البيت حنيف .... القراء الحنيف من سُنّتُه الختان ... الجوهرى الحنيف المسلم وقد سمى المستقيم بذلك كما سمى الغراب أعور وتحنف الرجل أى عمل عمل الحنيفية ويقال اختتن

وفيه أيضاً : أبو عمرو الحنيف المائل من خير الى شر ومن شر الى خير

ومن ذلك كله يمكننا أن نقول إن الحنيف في الأصل هو المائل الى الشر كما هو عنـد اليهود في لغتهم والعرب قد يطلقون اللفظ على الشيء وضـده فأطلقوا الحنيف على المستقيم على ملة ابراهيم استعمالاً للفظ في أحد معنييه [٣] فيحتمل أن اليهود أطلقوا على العرب التى شاعت عندها عادة الختان هذا اللفظ دون أن

---

(١) راجع التوراة سفر التكوين فصل ١٧ آية ١١ والتلمود كتاب נדרים ص ٣١
(٢) لهذه الـكلمة بعض المعانى بالعبرية مثل : تملق أو اقترف اثماً أو تذلل وتداهن
(٣) لسان العرب جزء ١٠ ص ٤٠٣

توضح لهم معناه ثم شاع استعماله عند العرب حتى فى معناه الا صلى[١]

لو اتضحت صحة هذا الرأى لكان فيه برهان قاطع على ان عادة الختان قد سرت الى العرب من اليهود فى الدور الثانى

يجتهد العالم (Wellhausen) فى أن يبرهن ان الحنيفية كانت مذهباً نصرانياً ذائع الصيت[٢] فى بلاد العرب ولكن Leszynsky يعارضه[٣] و يقول ان الحنيفية لم تكن نصرانية البتة كما لم تكن مذهباً معيناً بل كان هناك أشخاص من مفكرى العرب استنكروا عبادة الأوثان متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية ودخل بعضهم فى اليهودية ودخل بعض آخر فى النصرانية و بقى جماعة منهم غير متمسكين بدين من الأديان واستدل على ذلك بقول القرآن ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً فانه صريح فى أن الحنيفية لم تكن واحداً منهما

وقد جاء لبعض الافراد من الحنيفيين ذكر فى سيرة ابن هشام أكتفى بنقل ما يقوله عن واحد منهم « وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والذبائح التى تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب ابراهيم وبادأ قومه بعيب ماهم عليه . . . وكان زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً يسند ظهره الى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين ابراهيم غيرى ثم يقول اللهم لو انى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك ولكنى لا أعلمه . . . »[٤]

---

(١) دوزى ص ١٩٠
(٢) ص ١٩٢ Skizzen H IV
(٣) ص ٤٣ Die Juden zu Medina
(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٧

كذلك قرر بعض العلماء من الافرنج أن أمر النسيء نشأ من تأثير اليهود على العرب(١)

يحدثنا ابن هشام بأن « النسأة هم الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر(٢)

وللعرب فى موضوع النسأة ومعناها كلام طويل عريض(٣) وأما الافرنج فينكرون وجود تفسير لكلمة نسأة بالعربية ويميلون الى القول بما كان معروفاً عند اليهود من ان الناسئ (נשיא) أى الرئيس الدينى عند اليهود كان يؤخر ويقدم الشهور ويعين مواعيد الأعياد والصيام ويعلن النتيجة بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة (٤)

وأضيف الى ذلك أن الناسيء (נשיא) هو الاسم الشائع لرئيس القبائل عند بنى اسرائيل منذ أزمنة غابرة (٥)

ويحدثنا ابن هشام أن أول من نسأ الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة ثم قام بعده على ذلك ابنه (ابن حذيفة) ثم قام بعد عباد قلع بن عباد ثم قام بعد قلع أمية ابن قلع ثم قام بعد أمية عوف بن أمية وكان آخرهم وعليه قام الاسلام وكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليه فحرم الاشهر الحرم الأربعة رجباً وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فاذا

(١) ص ١٦٨ — ١٧٤ Die Israeliten zu Mekka
(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٤٣
(٣) أديان العرب تأليف محمد نعمان الجارم ص ٤٣ — ٤٦
(٤) ראש השנה פ ע
(٥) سفر الخروج فصل ٣٤ آية ٣١ وسفر عدد فصل ٧ آية ٣

أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليوافقوا عدة الأربعة الاشهر الحرم فاذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال انى قد أحللت لكم أحد الصفرين الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل . . . (١)

هذه أقوال ابن هشام عن النسأة وهى توضح قبل كل شىء أن وظيفة النسأة أدخلت على العرب فى عصر غير بعيد من ظهور الاسلام ثم ان وجود هذه الوظيفة فى بنى كنانة يرشدنا الى سؤال : هل كان لبطن بنى كنانة الذى اصدر النسأة علاقة ببطون بنى كنانة المتهودة التى سكنت جنوبى مكة ثم لماذا وجدت المقاومة للنصرانية فى اليمن وللنجاشى الذى قضى على ذى نواس من جهة النسأة وحدهم دون الزعماء الوثنيين ؟ ألم يكن من المحتمل أن لهؤلاء النسأة علاقة باليهودية ؟ . . .

ولكنى أكتفى بما أشرت اليك من العلاقة بين كنانة والنسأة وكنانة واليهود ومقاومة النسأة للنجاشى بسبب عطفهم على القضية اليهودية فى الجزيرة دون أن أجزم فيها برأى . . . . .

ويؤيد أبو معشر البلخى(٢) وأبو الريحانى البيرونى(٣) والمقريزى(٤) رأينا فى النسأة ويقولون ان العرب تعلموا عمل الكبسية من اليهود قبل الهجرة بقريب من مائتى سنة وأخذوا يعملون بالكبس ما يشاكل فعل اليهود من الحاق فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس وقد أطلق العرب على عمل الكبسية بالنسىء أى التأخير غير انهم خالفوا اليهود فى بعض أعمالهم لأن اليهود كانوا يكبسون تسع عشرة سنة قمرية بسبعة أشهر قمرية حتى تصير تسع عشرة شمسية والعرب تكبس

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٤٥
(٢) كتاب الالوف
(٣) الآثار الباقية عن القرون الخالية
(٤) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

أربعاً وعشرين سنة قمرية باثنى عشر شهراً قمرياً . . . .

كذلك نظن أن لوظيفة الصوفة علاقة باليهود أو بلغتهم العبرية على أقل تقدير يحدثنا ابن هشام « كانت صوفة تدفع بالناس من عرفة وتجيز لهم اذا انفردوا من مِنَى فاذا كان يوم النفر أتوا لرمى الجمار ورجل من صوفة يرمى للناس ما يرمون حتى يرمى فكان ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له قم فارم حتى نرمى معك فيقول لا والله حتى تميل الشمس فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له ويلك قم فارم فيأبى عليهم حتى اذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه . . . وكان آخرهم الذى قام عليه الاسلام كرب بن صفوان . . . (١)

وأما صوفة بالعبرية فان معناها الحارس وهذا التفسير يلائم ما نقلناه من كتاب السيرة عن الصوفة (צפה) بصر أو الشخص الذى يبصر فى الشؤون الدينية لأنه أصدر الأمر حين مسابقة الافاضة وكان أول من رمى الجمار بالحجارة أو الحصى فى وادى منى

ومنى هذا من الأصنام المشهورة عند بنى اسرائيل فى عصور جاهليتها لاننا نعلم من آيات نبوات أشعيا أن منى (מני) كان الهاً للخمر « وأما الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسى فرتبوا الى جد (٢) مائدة وملأوا لمنى خمراً ممزوجاً (٣)

وكذلك يرى العالم دوزى ان استعمال العرب لاسماء الأسبوع تأثيراً يهودياً (٤) اذ لا يمكن تصور استعمال لفظ السبت ليوم من أيام الاسبوع دون أن يأتى من

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ١١٣

(٢) من الاصنام الكنعانية גד اله الجد والحظ وقد أخطأت تراجم التوراة العربية فى تفسير هذه الآية : راجع ترجمة التوراة لجمعية المبشرين البريطانيين ص ١٠٧٠

(٣) أشعيا فصل ٦٥ آية ١١

(٤) Die Israeliten zu Mekka ص ١٨٠

تأثير اليهود كذلك عرف يوم الجمعة عند أهل مكة بلفظ عروبة وهو لفظ شائع عند اليهود يطلقونه على كل يوم يقع قبل السبت وقبل الأعياد :

ערב שבת, ערב חג הפסח (١)

ومهما يكن من مبلغ تأثير اليهود فى العرب فانى أميل الى الاحتراس والتحفظ لئلا نصل الى المبالغة والمجازفة فى الحقائق التاريخية

على أن هناك مقياساً آخر يجب ألا ينسى وهو ما قلته فيما مضى من ان الصلة الدموية فى العنصر والتقارب فى اللغة والاخلاق هو أساس التشابه بين العقلية واتجاه الأفكار والآداب بين العنصرين

ولا يمكننا فى كل الأحوال أن نستنتج نتائج تتعلق بالنفوذ كما يحكم بعض الذين لا يتعمقون فى البحث فيقولون مثلاً ان مهنة التجارة وما يتصل بها من دهاء وذكاء ونشاط قد جاءت الى أهل مكة من يهود بلاد الحجاز اذ ترجع ملكة التجارة عند بطون أم القرى قبل كل شىء الى مركزها الجغرافى ووقوعها فى وسط بلاد العرب وعدم وجود مرافق أخرى للتكسب والارتزاق

ثم ان التشابه العظيم بين اليهود وأهل مكة من وجهة الأخلاق والتقاليد والاصطلاحات الدينية كان سبباً فى ضلال بعض المستشرقين حتى خيل اليهم أن أهل مكة واليهود قُدُّوا من أديم واحد ونبتوا من نَبْعَة واحدة فأخذوا يذهبون فى المبالغات والظنون مذاهب عجيبة ومنهم دوزى (٢) الذى يجتهد فى أن يبرهن على أن حرم مكة قد عمر بواسطة بطون بنى شمعون وان تقاليد الحج والطواف حول الكعبة ليست الا وراثة اسرائيلية قديمة ولكننا نعتقد أنه اذا ظهر التشابه بين أهل مكة واليهود أكثر منه بين اليهود والبطون الحجازية الأخرى فان ذلك

---

(١) راجع التلمود كتاب אבות ה وكتاب פסחים קט

(٢) ص ٤٠ — ١٨٥ Die Israeliten

يرجع الى أن مكة كانت أرق وأرفع من بقية البلاد فى شمال الجزيرة ومن أجل هذا كان حرم مكة موضع الاحترام والتبجيل من جميع العرب فى الجاهلية.

ومع انى أستنكر استنكاراً شديداً ما استنتجه دوزى فى أمر حرم مكة وعلاقته ببطون بنى شمعون فان هناك أمراً يستوقف الأنظار وهو انه كثيراً ما يحدثنا ابن هشام عن حرم مكة و بنائه واشتراك ابراهيم واسماعيل والملائكة فى تقديسه الخ (١) . . . بشكل يشبه ما يقصه التلمود عن بناء الهيكل المقدس بأورشليم وعلاقة الآباء الأقدمين به وتقديس الملائكة له حتى خيل الينا أثناء قراءتنا كتاب السيرة لابن هشام فى هذه الموضوعات اننا نقرأ صحف التلمود القصصية . . .

تجتهد طائفة من أنصار Wellhausen فى أن تبرهن على أن تأثير النصرانية فى النفوس العربية الحجازية كان أقوى من تأثير اليهودية مستندين الى أن عدد نصارى العرب كان أكثر من عدد اليهود(٢) ولكن هذا غير صحيح لان الكثرة النصرانية العربية انما كانت على أطراف الجزيرة من جهة الشمال أما فى داخل الحجاز حيث المراكز التجارية والدينية والفكرية فقد كانت الاكثرية فى جانب اليهود بل لم يكن هناك من نصارى العرب الا عدد قليل جداً

وفضلاً عن ذلك فقد كانت الصلة قوية جداً بين مكة و يثرب التى كانت تكاد تعتبر موطناً خالصاً لليهود

---

(١) ١٠٦ / ١٣٤ / ١٨١ ص ابن هشام جزء ١ وللبخارى أحاديث فى هذا الموضوع منها « وقال الرسول يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لاحد قبلى ولم يحل لى الا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطة الا من عرفها ولا يختلى خلاه . . . جزء ٢ ص ٣٠١

(٢) ص ١٩٧ Skizzen Heft III

ويكفينا فى تقويض مزاعم هؤلاء المستشرقين اننا نجد أكثر من ثلث القرآن يتكلم عن اليهود ويناقشهم ويهتم بأقوالهم والرد عليها فطوراً يمدحهم وتارة يقرعهم ويؤنبهم تأنيباً شديداً فان ذلك يدل على ما كان لليهود من المكانة العظيمة فى نفوس العرب وعلى الصلة المتينة التى كانت تربطهم بهم

لا ننكر على النصرانية تأثيرها فى العرب بوجه عام ولكنه على كل حال تأثير ضئيل بالنسبة للنفوذ اليهودى الذى كان واضحا جلياً فى كل ناحية من نواحى الحياة الروحية والمادية . . .

وهناك مسألة أخرى تلفت نظر الباحث فى كتب بعض المؤرخين من الافرنج وهى ما يزعمونه من ان اليهود كانوا محتقرين فى الجزيرة العربية قبيل ظهور الاسلام (١) ونحن نميل الى الاعتقاد بأن ذلك غير صحيح لان العربى فى الجاهلية لم يكن يفهم البغض والضغينة الدينية كما فهمها المتأخرون ولقد يؤيد الاستاذ النجار رأينا بقوله : لو كان اليهود محتقرين لما اهتم رسول الله بمحالفتهم ولما أهمه أمرهم يوم الأحزاب حين مالوا عنه ولما قام لحربهم بعد يوم الأحزاب على ممالأتهم عليه واتيانهم بالأحزاب لحربه . . . اه

وكان عرب الجاهلية يلقبون اليهود أثناء القتال والنضال بألقاب قبيحة ذميمة وكذلك كان اليهود يفعلون ولكن ذلك لم يؤد الى احتقار اليهود أو التعريض بالقومية اليهودية ودينها وما كان للعربى الذى طبع على حب الحرية والغيرة على الكرامة أن يسلبها من غيره وكل القرائن تدل على أن العرب على اختلاف بطونهم وأديانهم كانوا يتبادلون الاحترام دون أن يعرفوا فرقاً بينهم من وجهة الحقوق السياسية والاجتماعية والأدبية فقد نجد كعب بن الأشرف يرثى قتلى قريش كما نجد عباس ابن مرداس يذكر جلاء بنى النضير ويبكيهم فى قصيدة

وكذلك يمدح أبو سفيان زعيما من زعماء اليهود ويقول :

---

(١) ص ١٩٧ Skizzen Heft III

To: www.al-mostafa.com

سقانى فروّانى كميتاً مدامة ... على ظمأ منى سلام بن مشكم
تخيرته أهل المدينة واحداً ... سواهم فلم أغبن ولم أتندم
فلما تقضى الليل قلت ولم أكن ... لأفرحه أبشر بعرف ومغنم
وان أبا غنم يجود وداره ... بيثرب مأوى كل أبيض خضرم(١)

ولا يمكن أن يعول على ما يؤخذ من القصص والروايات التى جاءت بعد فتور الأحوال بين اليهود والأنصار أو يستدل به على مكانة اليهود فى نفوس العرب زمن الجاهلية

كان اليهود موضع الاحترام عند الأشراف والنقباء من قريش وكان رسول الاسلام ينظر اليهم هذه النظرة من التبجيل الى زمن طويل بعد مبعثه كما سنوضح ذلك فيما بعد

وكان العرب يجهلون الديانة اليهودية و يقولون لليهود « لكم علم ليس لنا »(٢)

وقد يحدثنا ابن هشام أن رجلا من يهود الشام يقال له ابن الهيبان قدم علينا قبيل الاسلام بسنين فحل بين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلى الخمس أفضل منه فأقام عندنا فكنا اذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدى مخرجكم صدقة فنقول له كم فيقول صاعاً من تمر أو مُدّين من شعير فنخرجها ثم يخرج بنا الى ظاهر حرتنا فيستقى لنا والله ما يبرح من مجلسه حتى تمر السحابة ونسقى قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً . . .(٣)

والذى يمكننا ان نستنتجه من هذه القصة الخرافية ان مؤرخى العرب كانوا يعتقدون ان الديانة اليهودية واقوامها كانوا موضع الاحترام فى الجاهلية

---

(١) الاغانى جزء ٦ ص ٩٧
(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٢٠١
(٣) ابن هشام جزء ٠ ص ٢٠٤

وكتن من نساء العرب من تنذر اذا ولدت وعاش ولدها ان تهوده لان اليهود كانوا فى نظرهم أهل علم وكتاب(١)

***

قبيل ظهور الاسلام حدثت حروب عظيمة بين بطون يثرب عرفت بيوم بعاث دامت سنين طويلة كذلك حدث فى جهة مكة حرب ضروس عرفت بايام الفجار التحمت فيها المعارك بين بطون قريش وكنانة فى أربعة أدوار يقال لها الفجارات الاربعة

أما الفجار الاول فكان عمر النبى محمد فيه عشر سنين وسببه ان بدر ابن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه بسوق عكاظ ويفتخر على الناس فبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم انه اعز منى فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته فأسقطها وأزالها فاقتتلوا . وسبب الفجار الثانى ان امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فطاف بها شاب من قريش من بنى كنانة فسألها أن تكشف وجهها فضحك الناس فنادت المرأة يا آل عامر فنادوا بالسلاح ونادى الشاب يا بنى كنانة فاقتتلوا . . . وسبب الفجار الثالث انه كان لرجل من بنى عامر دين على رجل كنانى فماطله فجرت بينهما مخاصمة فاقتتل الحيان(٢)

وكانت آخرها فجار البراض وقد بلغ رسول الله أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة حين هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة و بين قيس عيلان وكان الذى هاجها ان عروة الرحال من بنى هوازن اجاز لطيمة (وهى الجمال التى تحمل المسك) للنعمان بن المنذر فقال له البراض بطلب غفلته حتى اذا

---

(١) ديانات العرب فى الجاهلية ص ٢٠١

(٢) من تعليقات الشيخ محمود سيد الطهطاوى على كتاب السيرة لابن هشام جزء ١ ص ١٧٥

كان بتيمن ذى طلال بالعالية وثب عليه فقتله فى الشهر الحرام فلذلك سمى الفجار فارتحل العرب عن عكاظ وهوازن لا تشعر أن البراض قد قتل ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم فأمسكت عنهم هوازن ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً والقوم متساندون على كل قبيل من قريش وكنانة رئيس منهم وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم وشهد رسول الله بعض أيامهم أخرجه أعمامه معهم وقال الرسول كنت أنبل على أعمامى أى أرد عليهم نبل عدوهم اذا رموهم بها . . . (١)

وأما الذى نقلناه عن أيام الفجار فيحتمل أن يكون من العامل المباشرة والقريبة لظهور الهياج بين قبائل قريش وكنانة وهوازن .

ويلوح لى أن النضال الشديد الذى ظهر بين قبائل الحجاز فى شماله وجنوبه يدل على انه وجد فى القرن السادس ب . م حركة سياسية قوية بين زعماء الحجاز كان كل واحد منهم يطمع أن يستأثر بالحكم ليتمكن من أن يشيد أركان مملكة جديدة

ولكن التنافس أضعف الجميع وقلم أظافرهم وزاد فى المصاعب والمتاعب التى كانت تحول بين كل واحد منهم و بين ما يريد حتى ظهر هناك شخص توافرت فيه شروط لم تتوافر فى غيره فألف بين القلوب

ومن ذلك الحين أخذت جداول الجزيرة العربية تتجه اتجاهاً واحداً ويقترب بعضها من بعض الى أن امتزجت فى نهر واحد أخذ يتدفق من قلب الجزيرة و يفيض بقوة حتى غمر وجه الأرض . . .

وقبيل ظهور الاسلام وجدت فى الديار العربية نهضة فكرية عظيمة كان الاضطراب من علاماتها وقبيل الاسلام أيضاً أصبحت القلوب صالحة لقبول

---

(١) ابن هشام جزء ١ ص ١٧٥

دعوة دينية جديدة وصارت الديانة الوثنية موضع السخرية جهراً عند بعض الطبقات من المفكرين

يحدثنا صاحب الأغانى أن قس بن ساعدة الأيادى كان يتكئ عند خطبته على سيف أو عصا ويقول « مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا والله ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه وأدرككم أوانه فطوبى لمن أدركه فاتبعه وويل لمن خالفه[1]

ومع ان النصرانية واليهودية قد أوجدتا الشك فى صحة الديانة الوثنية فانهما لم تفلحا فى ادخال تغيير جوهرى فى النظم الدينية وظلت الوثنية واليهودية والنصرانية فى نزاع عنيف دون أن تتغلب واحدة على الاخرى

واننا نعتقد أنه لو ظهر هناك يهودى ذو عاطفة ربانية قوية ودعا العرب الى الدخول فى دين جديد يشبه اليهودية فى جوهره ويبقى عربياً فى تقاليده وروحه لكانت دعوته قد وجدت آذاناً مصغية وقلوباً واعية

كذلك لو كان واحد من المفكرين الحنيفيين أو غيرهم دعا لتوحيد الآله مع ابقاء النظم العربية الاجتماعية التليدة لكانت دعوته قد صادفت أرضاً خصبة

يقول صاحب الأغانى ان أمية بن أبى الصلت « كان قد نظر فى الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفة وحرم الخمر وشك فى الأوثان وكان محققاً والتمس الدين وطمع فى النبوة لانه قرأ فى الكتب أن نبياً يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون ذلك . . .[2]

ولكن أمية وغيره لم يظهروا بمظهر الأنبياء ولم يجترءوا على أن يفادوا بحياتهم

---

(١) الاغانى جزء ١٤ ص ٤٠

(٢) الاغانى جزء ٣ ص ١٧٩

فى سبيل الدعوة الدينية و بقيت أفكار أهل الجزيرة العربية مضطربة اضطراباً عنيفاً بين اليهودية والنصرانية والوثنية الى أن ظهر رجل رفع علم النبوة وصار غرة ناصعة فى جبين الدهر ومجداً باقياً ما بقى الزمان وأرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديدا . . .

وكان اسمه محمد بن عبد الله من آل قريش من مدينة مكة

الباب الخامس

مكة ويثرب ازاء الحركة الاسلامية

مبعث الرسول — كيف يكون البحث فى سيرة الانبياء ؟ طريقة البحث عند رجال العلم ورجال الدين — الظروف التى كانت تحيط بالنبى محمد قبل هجرته الى يثرب — هل سكن اليهود فى مدينة مكة قبيل الهجرة — رأى الاب المستشرق لامنص فى هذا الموضوع تقسيم العالم Noeldke القرآن الكريم الى أربعة أقسام — الآيات القرآنية الموافقة لمبادئ التوراة الجوهرية — ذكر الآيات القرآنية الاولى لموسى وسردها بعض أنباء بنى اسرائيل فى مصر — رواية احتكام رسول الله وبنى قريش الى يهود يثرب — ارتياب بعض المستشرقين فى صحة هذه القصة الخطيرة — رأى المؤلف فى هذا الموضوع — اضطهاد أهل مكة للمسلمين — نزوح فئة من المسلمين الى الحبشة — لماذا لم يلتجئ المسلمون الى اقليم من أقاليم العرب أو الى يهود يثرب ؟ سياسة الحبشة فى بلاد العرب — عرض الرسول نفسه على العرب فى المواسم — رحلة الرسول الى الطائف — معاناة الرسول للشدائد والصعاب فى سبيل نشر دعوته — التقاء الرسول فى العقبة برهط من الخزرج — الفرق بين عقلية القبائل العربية وبطون يثرب — آثار تعاليم اليهودية فيهم — الديانة اليهودية من الاسباب القوية لظهور الاسلام — اعتقاد اليهود بظهور مسيح — تأثير هذه العقيدة فى نفوس قبائل يثرب — حاجة بطون يثرب الى محالفات سرية — قصة الحيسرانس بن رافع وقدومه الى مكة قبل يوم بعاث — بيعة النساء بالعقبة — بيعة العقبة الكبرى — مطامع بنى الخزرج من هذه البيعة — الغاية التى كان النبى يرمى اليها — نتائج بيعة العقبة الكبرى فى التاريخ الاسلامى — موقف قريش واليهود ازاء البيعة الكبرى بالعقبة

يوجه العلماء أثناء بحثهم عن حياة العظماء من الجنس البشرى عناية عظيمة الى البيئة التى نشأوا فيها والوسط الذى أحاط بهم ولا يفتأون يبحثون باهتمام شديد عن الظروف الداخلية والخارجية التى وجدوا فيها لوثوقهم بأن لها الفضل الاكبر فى تكوين عقليتهم وتنمية عبقريتهم حتى اذا ما استوفوا ابحاثهم الدقيقة

العميقة يأخذون فى استنتاج النتائج التى يطمئنون اليها وترتاح لها ضمائرهم

غير أن هذه الوجهة فى البحث لايرتضيها كثيرا رجال الدين أثناء البحث فى تاريخ الانبياء لاسيما من لا يوافقون منهم على فكرة التوفيق بين العلم والدين لانهم يعتبرون للشؤون الدينيــة مقياساً آخر وينزلون رجال الوحى منزلة أخرى وينظرون اليهم بعين غير التى ينظرون بها الى ابطال التاريخ البشرى

على أن هذا الاختلاف بين مقياس محقق العلم والدين لا يوجد الا فى تعريف النظرية دون الوجهة العملية فى جوهرالبحث لان رجال الدين لا يخالفون الرأى العلمى القائل بأن الوحى انما نزل على الانبياء فى ظروف داخلية وخارجيــة دعت اليه الأحوال وبواعث نفسية توافرت فى الانبيــاء دون غيرهم ممن عاشوا فى بيئاتهم وعصورهم ولمقلبــات وعوارض نفسية كانت تعرض لهم فى ظروف خاصة من سرور وشجون واضطراب

وقبل أن نشرع فى توضيح الظروف التى كانت تحيط بالنبى محمد أثناء نزول الآيات القرآنية الى عهد هجرته الى يثرب فاننا نود أن نبحث فى مسألة وقع فيها نزاع بين المستشرقين وهى هل اتصل رسول الاسلام بافراد وجماعات من اليهود قبل هجرته الى المدينة أم لا ؟

لا شك أن أفرادا من اليهود كانوا يأتون الى مكة لاشــغال تجارية وأعمال مختلفة وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون الى خيبر ليجلبوا منها حلى آل أبى الحقيق التى كانت نساؤهم وفتياتهم تتحلى بها حين زفافهن وغير ذلك[1]

كذلك كان كعب بن الاشرف قد جاء الى مكة ليرثى قتلى بدر كما جاءت وفود من يهود النضير الى مكة لتحزب الاحزاب ليوم الخندق[2] وذلك بعد الهجرة

---

(١) الواقدى ص ٢٧٧

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٦٨

وكان رجال مكة يجلبون العبيد من اليهود ويحدثنا الواقدى أنه وجد فى مكة عبد من اليهود كان اسمه عبد الدار بن جبر دخل فى ذمة الرسول بعد أن سمع منه سورة يوسف فكان لها وقع شديد فى نفسه ولما بلغ الخبر مشركى مكة أوسعوه ضربا فاعطاه الرسول بعد فتحه لمكة مقداراً من المال فتزوج بامرأة شريفة من بنات مكة (١)

وقد أفرغ المستشرق Lamens جهده فى أن يبرهن على أن عدداً من اليهود كان يسكن مدينة مكة قبيل ظهور الاسلام (٢) ولكن نظرياته لا يطمئن اليها الباحث ولو صح ما ادعاه هذا العالم لكان لليهود حى خاص بهم فى مكة ولكان لهم معبد خاص يقيمون فيه صلواتهم و يدرسون كتبهم وليس فى جميع المصادر التاريخية القديمة ما يشير أقل إشارة الى وجود شيء من ذلك

غير أنه من الممكن أن يكون بعض الأفراد سكنوا فى مدينة مكة كما سكن بعضهم فى مدينة الطائف (٣) وفى عدة مدن أخرى من الحجاز ولكنهم كانوا قليلين .

يحتمل أن النبى قد اتصل باليهود منذ حداثته لاسيما بعدان اشتغل بالتجارة عند السيدة خديجة اذ كانت الاعمال التجارية فى مدينة مكة مرتبطة ارتباطا شديدا بيهود يثرب وخيبر

ويرتاب بعض المستشرقين فى صحة خروج النبى الى الشام والتقائه بالراهب بحيرا (٤) ويعتقدون أن الرسول لم يتجاوز حدود الحجاز طول حياته (٥)

---

(١) الواقدى ص ٣٤٩
(٢) راجع الرسالة Les Juives a la Meque
(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٦٣ طبع مصر
(٤) ابن هشام جزء ١ ص ١٦٩
(٥) ص ٤١ Die Juden zu Medina

وقد قسم العالم Noeldke القرآن الكريم الى أربعة أقسام يشتمل القسم الاول منه على الآيات التى أنزلت قبل الهجرة الى يثرب و يتضح أن الآيات فى هذا الدور كانت موافقة لمبادئ التوراة الجوهرية وكانت ترمى الى التأثير فى النفوس العربية التى كانت تنظر باحترام عظيم الى تعاليم التوراة ومبادئها « ان هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى »[١]

وينبئ التنزيل أهل مكة بأن محمداً للعرب إنما هو مثل موسى لبنى إسرائيل و ينذرهم ان هم لم يؤمنوا بما جاء به النبى محمد ان يصيبهم ما أصاب قوم فرعون فيقول « إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً و بيلا فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً »[٢]

كما يقول « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى الى وما أنا إلا نذير مبين »[٣]

نفس هذا التعريف يوجد فى كتب العهد القديم عن بعض الأنبياء الاسرائيليين[٤] ويخاطب الوحى العرب بما يقنعهم بأن النبى ذكر فى التوراة وأن بنى إسرائيل يعلمونه « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين وانه لفى زبر الأولين أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى إسرائيل[٥]

ويشير التنزيل الى أن هناك وفاقاً تاماً بين القرآن والتوراة « قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن

(١) سورة الاعلى آية ١٩
(٢) سورة المزمل آية ١٥
(٣) سورة الاحقاف آية ٨
(٤) راجع ميخا فصل ٢ آية ٦ هزقياه فصل ٢١ آية ٧ (משיח)
(٥) سورة الشعراء آية ١٩٥

واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . . . ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين »(١)

من هذا يستنتج المستشرقون أن الافكار فى مدينة مكة كانت على علم بدين اليهود وتعاليمه وأن النبي الجديد قد ظهر بمظهر الأنبياء الاسرائيليين كى يثبت صحة رسالته و يؤيد دعوته التى يعلم قريش لها نظيراً فى اليهودية

و يعجب المستشرقون من أنه لم يأت فى هـذا الدور أقل ذكر للمسيح أو لتعاليم الانجيل وأن أول إشارة فى القرآن للسيد المسيح لم تكن إلا فى السنة العاشرة بعد مبعث النبي محمد(٢)

وقد يستنتج العالم (Lesynsky) من هذا انه كان هناك بون شاسع بين قلوب رجال عرب الحجاز فى الجاهلية و بين مبادئ النصرانية وتعاليمها بينما كانت السور القرآنيـة فى الدور الأول لا تخلو واحدة من الاشارة الى ما فى التوراة والتلميح الى مواضيعها وذكر شيء من تاريخ بنى إسرائيل(٣)

مع أن من المؤكد الثابت أن أفراداً من أحرار النصارى وعبيدهم قد كانوا فى مكة ساكنين ومختلطين بأهلها ولكن لم يثبت أن أهل مكة قد عرفوا النصرانية وتعاليمها ومبادئها

كان التأثر بتعاليم اليهودية شديداً جداً الى حد أن قبلة الرسول فى صلاته كانت الى جهة أورشليم كما هى عنـد اليهود وكان الرسول اذا صلى صلى بين الركنين اليمانى والاسود وجعل الكعبة بينه و بين الشام(٤)

ورواية احتكام رسول الله و بنى قريش الى يهود يثرب تدل على ما كان

---

(١) الاحقاف ٩ — ٢١

(٢) سورة مريم

(٣) ص ٤١ Die Juden

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٢١

مكة المكرمة

مقياس الرسم ١ : ١٦،٦٦٦

ملحوظات (١) الكعبه (٢) بيت الندوة (٣) الصفا .
(٤) المروة (٥) منزل السيدة خديجة (٦) السوق

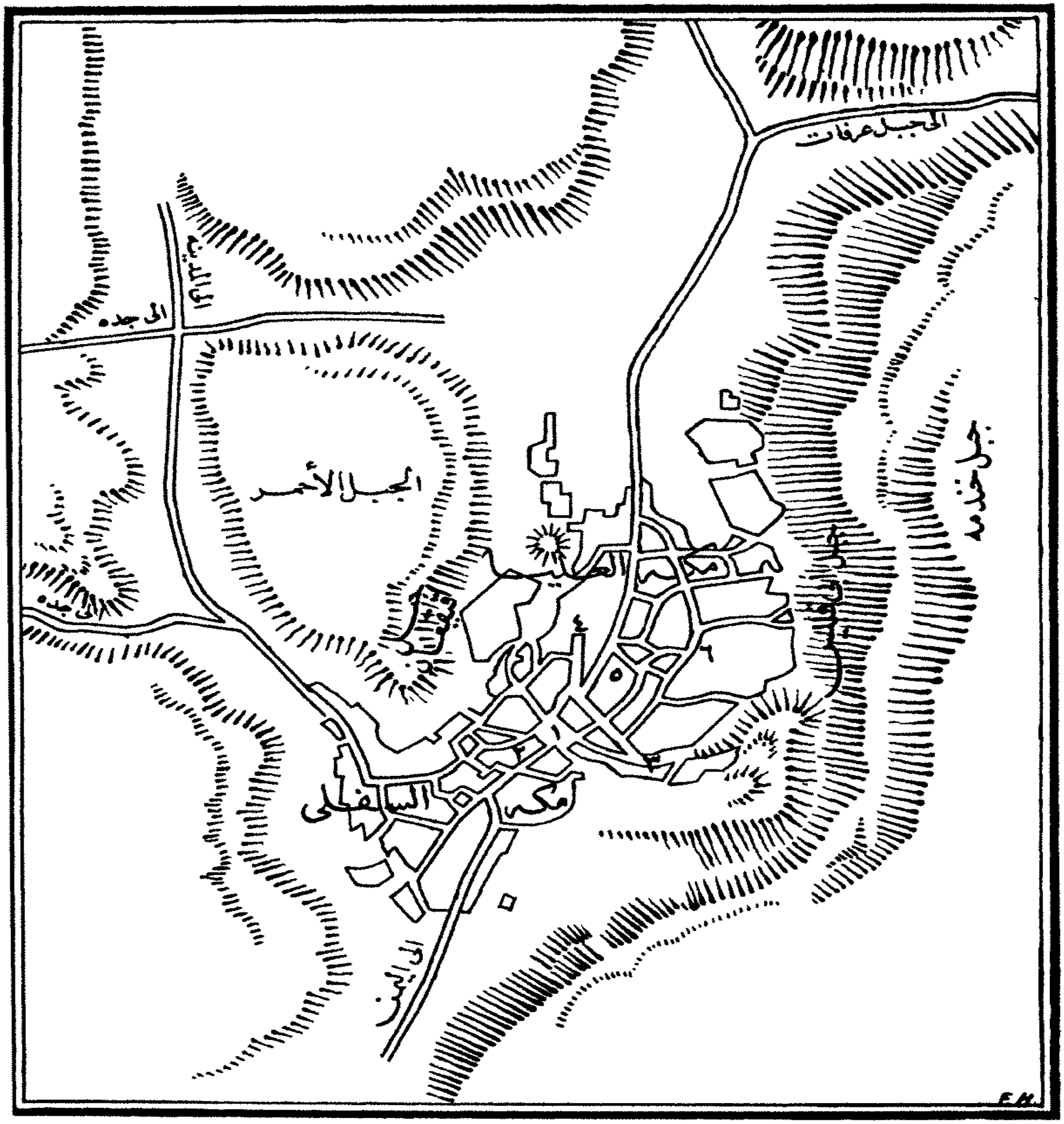

وضعت لكتاب تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام للدكتور اسرائيل ولفنسون .